علي الكردي

قصر شمعايا

رواية

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

علي الكردي

قصر شمعليا

رواية

«الماضي لا يموت. لا يعود مجرد ماضٍ»

وليم فوكنر

أحمد الشيخ طالب

كانت «الخريطة» لعبة طفولتنا المفضّلة، أنا وشلّة أصدقائي في حارة اليهود الدمشقية. كنا ننقسم إلى فريقين. الفريق الأول يختبئ بعيداً، فيما يبدأ الفريق الثاني برسم شبكة دهاليز الحارة بالطبشور على الأرض، ليحدّد المساحة التي سنتحرّك ضمنها، ومن ثم ننطلق إلى الأماكن المرسومة في الخارطة لنختفي في متاهتها. يأتي الفريق الآخر ويدرس «الخريطة»، ثم ينطلق في أعقابنا، لأن من شروط اللعبة أن يمسكوا بنا، قبل أن نعود خلال زمنٍ محدد، ونمحي آثارها.

كان الجري، والترقّب، والمناورة، وتكتيك الاختباء، من العوامل المثيرة جداً في هذه اللعبة، خاصةً وأن الخطر، والممانعة، واحتمال القبض علينا في طريق العودة كامنٌ أمامنا.

لم يخطر في ذهني آنذاك، أو في ذهن أيّ من أصدقائي الصغار، ونحن في ذروة الإثارة التي تمنحها لنا تلك اللعبة أننا نعيش في نقطةٍ من المدينة، يشكّل نسيجها الفسيفسائي المتنوّع مركز تلاقي بين الديانات، والإثنيات، والثقافات.. ولم يخطر في بالنا ونحن نرسم بالطبشور على الأرض تعاريج أزقتها الضيقة، ومتاهاتها الغرائيبة، أننا نتحرّك في نقطةٍ تخفي في باطنها آثار بشرٍ عاشوا فيها قبل آلاف السنين، ولم أدرك، أنا، أو غيري من أطفال اللاجئين الفلسطينيين، مدى معاناة أهلنا الذين سكنوا في هذه البقعة من المدينة، بعد عذابات رحلة التيه في العام 1948،

وأنهم بذلك سوف يضيفون إلى التنوّع تنوعاً.. ثم يمعنون في تأمّل ذاتهم، وإعادة اكتشافها، وصياغتها ليعرفوا ما لهم.. وما عليهم.

استفادت أسرتي، مثل عشرات مئات العائلات اللاجئة، من قرار الحكومة السورية في مطلع الخمسينيات، من إسكان اللاجئين في بيوت اليهود السوريين الغائبين، وكان حظ أسرتنا غرفة فسيحة ومضيئة في «قصر شمعايا»، وهي دار دمشقية جميلة بناها الثري اليهودي شمعايا أفندي سنة 1865، ولأن ورثته غادروا سورية مع من غادر من أبناء الطائفة آنذاك، سُجلت الدار بين أملاك اليهود الغائبين، ثم فُتحت أبوابها مع غيرها من البيوت المغلقة، أمام بعض اللاجئين الفلسطينيين الذين توزعوا على الجوامع وأسطحة المدارس والخيام.

صرت أكتشف، شيئاً فشيئاً، أننا نختلف عن محيطنا بأشياء كثيرة: رنين لهجاتنا التي ورثناها عن آبائنا تختلف، ومدرستنا الابتدائية التابعة لـ«الأونروا» تختلف عن المدارس الرسمية أو الخاصة لأبناء البلد، وأننا وحدنا بوصفنا لاجئين نذهب في آخر الشهر إلى مركز توزيع «الإعاشة» لنحصل على معونات غذائية.. ووحدنا من له عيادة طبية مجانية عليها شعار «الأونروا» الأزرق، ومركز لتوزيع الحليب يحمل الشعار ذاته.

لا أدري لماذا شعرت منذ طفولتي المبكرة بنفور شديد تجاه كل ما يتعلّق بـ«الأونروا»، ربما لأنها كانت بشكلٍ غير مباشر شاهداً على بؤسنا. كنت أكره «الكرت» الأزرق، لأن والدتي غالباً ما تجبرني على حمله في الصباح الباكر، والذهاب إلى العيادة الطبية لأحجز لها، أو لأحد أشقائي «نمرة» الدخول إلى العيادة. كنت أقف في طابور طويل مع نساء ورجال وأطفال، ريثما يتسنى لي الحصول على «النمرة»، وكنت أتشاجر يومياً مع شقيقي الأصغر حول من منّا سيذهب لإحضار حصتنا من حليب «الأونروا».

لم يكن الاختلاف والتمايز بيننا وبين الآخرين يقتصر على هذه المظاهر.. بل ثمة قصص وحكايا أخرى كثيرة، ورثتني مشاعر وصراعات داخلية لم أستطع آنذاك تفسيرها، أو هضمها. مثلاً لماذا نحن وحدنا أبناء العائلات اللاجئة، نحمل على رؤوسنا عجين الأرغفة التي تعجنها أمهاتنا في البيوت من طحين «الوكالة»، ونذهب به إلى الأفران لخبزه؟! كنت ألحظ نظرات الآخرين الخفية لي، وأنا أحمل سدر العجين، أو الخبز على رأسي أثناء ذهابي وإيابي إلى الفرن، تلك النظرة الموارية التي تحتمل الشفقة.. أو الدهشة، وتشعرني بالاختلاف. لم أكن آنذاك أفهم أو أدرك معنى «الهوية»، ولعل تلك النظرات الملتبسة كانت المدماك الأول الذي شرّع الأبواب في داخلي على كثير من الأسئلة عن معنى اللجوء.. والقضية.. والانتماء.. وعن معنى كوننا مجموعة من اللاجئين الفلسطينيين، تعيش في قلب النسيج المعقد لمدينة دمشق القديمة، الأمر الذي ولّد خصوصية ما لنا، تختلف نسبياً حتى عن باقي تجمعات اللاجئين الذين عاشوا نوعاً من التجانس داخل مخيماتهم.

كان قصر شمعايا وحده نسيجاً متفرّداً يختلف عن باقي دور اليهود، الأكثر تواضعاً التي سكنها اللاجئون، وإذا كان هذا الأمر - في البدايات - ميزة إيجابية، فقد تحوّل مع مرور الزمن إلى كارثة على ساكنيه، فالبيوت الأكثر تواضعاً استوعبت عدداً محدوداً من العائلات اللاجئة، وبالتالي كانت مشاكلهم أقل. بينما قصر شمعايا الذي يضم فسحتين سماويتين يتوسطهما كنيس استوعب في داريه العلوية والسفلية أكثر من خمسين عائلة كلٌّ منها كان نصيبه غرفة واحدة، وبما أن بعض غرف القصر كانت عبارة عن قاعات كبيرة، مزينة جدرانها بزخارف نباتية، ونقوش جميلة، وأرضيتها مكسوة برخاميات إيطالية

ملونة، فقد قُسّمت بحواجز خشبية لتتسع إلى عدة عائلات لاجئة، تتقاسم فيما بينها الروائح، والأصوات، والمشاجرات، وأنين الليل وهمساته..

ما زلت أذكر بقايا الجمال الذي كان عليه قصر شمعايا في طفولتي: أشجار النارنج والكبّاد والرمان.. والبحرة التي تتوسط فسحته.. والزخارف والنقوش على جدرانه.. وسقفه القرميدي.. ولكن من أين لهذه الدار البديعة أن تتحمّل كل هذا الزحام؟!

سُمح لنا باستخدام سطح الكنيس كمنشر للغسيل، وكان لبعض غرف الدار العلوية نوافذ زجاجية، تطلُّ على الفناء الداخلي للكنيس، ومن بينها غرفتنا، وكان يحلو لي أنا وأخوتي والرهبة تملأ قلوبنا، التلصص بفضول كبير على جيراننا اليهود، وهم يؤدون صلواتهم أيام السبت وفي الأعياد اليهودية، حيث يأتون في الصباح الباكر، رجالاً وفتياناً، يضعون القلنسوة الصغيرة على رؤوسهم، ثم بين فترة صمت وأخرى، تعلو أصوات تلاوة أسفار العهد القديم في لغة لا نفهمها، فيلفنا الخوف والغموض الذي يطرح على رؤوسنا الصغيرة الكثير من الأسئلة، حول طبيعة هذه الطقوس، دون أن نجد أجوبةً شافية لها، فها هم اليهود من حولنا: جيران وبشر مثلنا، وهم يحيطون بنا من كل جانب، يتحدثون اللغة نفسها التي نتحدثها، مع نوعٍ من المط الذي يضفي شيئاً من الرخاوة عليها.. وها هو أبو جاك اليهودي، بائع البيض بالجملة، يلبس الشروال والقوطية، ويلف حول كرشه المتدلي زناراً، ويعتمر طربوشاً أحمر على رأسه، بحيث يصعب أن تميّزه عن أي عجوز شاغوري(*) بلباسه التقليدي المعروف، وهو يشغل من الكنيس غرفةً جانبية يفرز فيها بضاعته، قبل أن يوزعها على

(*) الشاغور: حيّ شعبي من أحياء دمشق القديمة.

البقاليات المجاورة، وأحياناً يصرخ على والدتي: «جارتنا.. ابعتيلي الصبي، في عندي شوية بيض مكسّر سعرن رخيص».

كنت أتساءل في نفسي، وأنا أحمل صحن البيض المكسّر: هل يشبه اليهودي هنا.. اليهودي هناك؟ ما برح هذا السؤال يلحُّ عليّ في طفولتي لفترة طويلة.. وكنت أشعر بقلق عميق أمام هذا اللغز: نحن لاجئون أخذ اليهود أرضنا، وهؤلاء يهود أيضاً، وجيران قريبون جداً منا، وبعيدون في الوقت ذاته. إذ ثمة مسافة ما غامضة، ظلت تفصلنا عنهم لسبب ما، كان من الصعب عليّ إدراك كنهه!

ظلت حارة اليهود في دمشق، حتى نهاية العقد ما قبل الأخير من القرن المنصرم تضجُّ بهم وبنا.. مليئة بالتنوّع والحركة، وتتميّز بفرادة نسيجها السكاني، يحاذيها حي الأمين ذو الأغلبية الشيعية، وحيّ الشاغور السني، وإلى الشمال الغربي حي باب توما المسيحي، ومع التحاقنا نحن اللاجئين بهذا المزيج بدت المسألة، وكأنها مفارقة من مفارقات الزمن الغرائبية.

حينما كنت أذهب في الصباحات الباكرة لإحضار حصة الأسرة من حليب «الأونروا» كان يصادفني أحياناً واحدٌ منهم يطلب مني في أيام السبت، أن أضيء له النور، أو أشعل موقد الغاز، وخاصة جارنا العجوز «رفّول» الذي يبدو في أغلب الأحيان غاضباً من ضجيج الأولاد في الحارة ومشاكساتهم. كان الخوف يعتريني بشدة حين أدخل بيت «رفّول»، أو غيره من جيراننا اليهود، ربما بسبب الهدوء والصمت الذي يلفُّ بيوتهم الفسيحة، أو ربما بسبب الغموض الذي أشعر به نحوهم، جرّاء الحكايات التي نسمعها من الكبار عن بعض طقوسهم الغريبة، وعلى الرغم من ذلك كان إغراء «الفرنك» الذي سأحصل عليه مقابل إشعال النور يتغلّب على خوفي وارتباكي، ولطالما شعرت بالصدمة لجمال بيوتهم، واتساعها من

الداخل، لا سيما حينما أعقد مقارنةً بين حياتنا وحياتهم، حيث تعيش عائلة واحدة منهم، قد لا يتجاوز عدد أفرادها أصابع اليد الواحدة، إيقاعاً هادئاً في دار شبيهة بالدار التي نعيش فيها أكواماً من اللحم، كلٌّ منها محشور في غرفة واحدة من غرف الدار الكثيرة، مما يضطرنا في الصباح إلى الانتظار طويلاً، حتى يُتاح لنا فرصة قضاء حاجاتنا.

ولطالما أثار فضولي، وأنا في طريقي إلى مدرسة «الأليانس» ذات الطراز الكولونيالي التابعة لـ«الأونروا»، منظر العجائز اليهوديات، وهن يشرين قهوتهن الصباحية في الفسحات الخارجية، أمام منازلهن، التي تحيط بها النباتات والورود، لا لشيء، وإنما لشعوري بذلك الاختلاف الذي راح يتعمّق مع الزمن. كنت أرقب الست «وداد» بقصة شعرها الفرنسية، و«شنيورها» اللامع.. وزوجة العجوز «رفّول» الغاضب دوماً، وأم جاك العجوز السمينة، التي تضحك دائماً، فتظهر السن الوحيدة المتبقية في زاوية فمها، بينما الصبايا اليهوديات الأنيقات، الفاتنات يتوجهن في تلك الصباحات إلى مشاغل الخياطة الكثيرة المنتشرة في الحارة، ومعظمهن عوانس، يكدحن طوال النهار من أجل جمع «وطة» العريس المنتظر.

بالقرب منهم.. ومعهم عشنا كلاجئين. عايشنا صخب الأحداث البكر وتحولاتها. أقمنا الأفراح.. والمآتم.. وعلى جدران الكنيس في قصر شمعايا رسمنا خارطة فلسطين.. وكتبنا تحتها بالخط العريض: «عائدون»، ومن بعد علّقنا البيانات الأولى للعمليات الفدائية.. وصور الشهداء.. وفي مدرسة «الأليانس» تعلّمنا نحن أطفال اللاجئين مع حروف الأبجدية الأولى «حلم العودة» إلى فلسطين.. ديارنا المقدّسة التي ارتسمت على حوافِ قلوبنا: تعويذة سحرية، راحت تدخل بعض الطمأنينة إلى قلوبنا المضطربة، التي لم تفقد الأمل بالعودة إلى بيوتنا المعلّقة هناك

على جدران ذاكرة آبائنا، التي راح يراودها الشحوب كلما تقادمت الأحلام.

لقد شكلت خصوصية المكان مختبراً لانصهار الاختلافات بيننا، على الرغم من تعدّد لهجاتنا وعاداتنا، باختلاف وتعدد القرى والمدن الأصلية التي جئنا منها، وكان من الصعب على جيراننا الشوام، من مختلف الطوائف والديانات أن يميزوا تلك الاختلافات بيننا، خاصة وأن كلّ واحد منا كان يعتز بانتمائه إلى قريته، أو مدينته الأصلية، ويعتبرها قلب العالم.

هكذا.. أُتيح لنا.. نحن أبناء اللاجئين أن نسمع حكايات كل المدن والبلدات الفلسطينية، ونخزّن في ذاكرتنا أغاني وأهازيج، ودبكات.. وعادات كل ألوان الطيف الحارة والباردة.

تفتّح الذاكرة

ربما ظلّ النسيان، يطوي بغباره المتراكم أحداث تلك الفترة الهامة من حياتي، لولا تحالف الأقدار، مع تداعيات الأحداث المتسارعة التي دفعتني إلى تذكّر ملامح تلك الفترة على نحوٍ شديد الوضوح، بل أكثر من ذلك، ربما جعلتني أحداث الحادي عشر من أيلول، أستدعي تلك اللحظات المؤثّرة التي صاغت بنسيجها ما آلت إليه حياتي بعد خمسين عاماً، حيث طفت على سطح ذاكرتي، وكأنني أعيشها للتو، غير مصدّقٍ أن رحم تلك المرأة: المثيرة، الغامضة، التي كانت تشيع الفرح من حولها قد أنجب نقيضها.

لكأنني الآن أشمُّ رائحة الأنثى فيها، وهي تتنقّل بخفّةٍ بين غرفة الطعام والمطبخ، في تلك المساءات الصيفية الدمشقية في مطلع الستينيات، لتحضّر لنا بحب واحتفالية، أطباقاً شهية، متنوّعة، كانت تضفي عليها لمساتها، فيما نحن (الأولاد) متسمّرون أمام شاشة التلفاز العجيب، الذي دخل البيوت حديثاً، نتابع بشغف ودهشة تتالي مشاهد الأبيض والأسود، تحملنا على أجنحتها، نحو عوالم وحيوات قصية، مليئة بقصص الخيال، والأحلام والطرائف.

بدأت عائلة رشا رحلة التيه، مثل أي عائلة فلسطينية لاجئة، عانت شظف العيش، وقهر الاقتلاع. سكنت في البداية على سطح مدرسة «الأليانس» التي تقع في الحي اليهودي، قبل أن تنتقل إلى غرفة متواضعة في «قصر شمعايا».

تتكوّن أسرة رشا من عشرة أفراد: أربعة ذكور، وأربع إناث بالإضافة إلى الأب والأم. رشا كانت أصغرهم سناً. أغنية جميلة في السادسة من عمرها. استطاع شقيقها الأكبر «سالم»، بسبب إتقانه اللغة الإنكليزية العمل في أحد الفنادق الكبيرة في المدينة، بينما اشتغل أخوته الأصغر سناً عمالاً في الشركة الخماسية للغزل والنسيج، وكانت هذه البداية فاتحة مشجّعة لعائلة لاجئة، فقدت كل ما لها، وما عليها.

ولأن مصائر البشر، لا تستقر عند حدٍّ معين، فقد قلب حادث عابر حياة الأسرة رأساً على عقب، فعلى الرغم من غيوم القلق والاضطراب الذي سيطر على أجواء الأسرة، بسبب ملاحقة مباحث أمن الدولة للابن الأكبر «سالم»، فقد كانت هذه الحادثة بمثابة نقطة التحوّل التي انتشلت الأسرة من بؤسها. بعد اختفاء «سالم» لأكثر من سنتين، دون خبرٍ أو علم، وصلتهم منه رسالة مقتضبة، تخبرهم أنه استقر في قطر، التي كانت تشهد آنذاك نهضة عمرانية واسعة، بسبب اكتشاف النفط، وسرعان ما أرسل «فيزا» عمل لباقي أخوته، الذين سافروا إلى هناك تباعاً، وخلال فترة وجيزة طرأت نقلة نوعية على حياة الأسرة، التي انتقلت من بؤس العيش في غرفة واحدة بقصر شمعايا، إلى شقة واسعة في حي الأزبكية الحديث بدمشق، بينما بقيت أسرة خالهم صالح الشيخ طالب (والدي)غارقة في أوحال بؤسها، تحلم، وتتضرّع إلى الله أن ينظر في حالها، ويفتح لها باب الرزق، وهو الكريم، القادر، الرؤوف، العارف بأحوال عباده..

أتاحت الظروف المادية الجديدة لأسرة رشا حياة تعليمية واجتماعية، أفضل بكثير من حياتنا.. وعلى الرغم من الفارق المادي الكبير بين الأسرتين، فقد ظلّت أواصر العلاقة قائمة بينهما، لكن مرارة المقارنة بين الفوارق التي لم تخف نفسها، خلّفت ندوباً عميقة في داخلي، طبعتني بطابعها، ولاحقتني على مدار السنوات اللاحقة.

كانت رشا تكبرني بعدة سنوات، بيد أن الكثير من المشاهد والأحداث المشتركة التي تركت آثارها في داخلي، كانت تصفو في ذهني على نحوٍ شديد الوضوح عند مفاصل، ومحطات معينة، ثم تتفرز وتتغربل لتطفو على سطح ذاكرتي بأدق التفاصيل المشحونة لتلك الأيام، بأفراحها، وأحزانها الصغيرة، واكتشافاتها البكر، التي تلتمع كبؤر ضوءٍ متناثرة في عتمة ليلي الطويل.

كانت تلحُّ عليَّ بين فترةٍ وأخرى، نظرة رشا الحنونة، الدافئة، التي تفرض بجمال أنوثتها دون أن تقصد، سطوةً على كل من حولها، خاصة حينما يتصادى رنين ضحكتها: موسيقا تشيع الفرح والبهجة، وكأنها أصوات نايات واعدة بالرغبة، عندئذ كنت أنا ابن العشر سنوات أتحوّل في حضرتها إلى كائنٍ آخر، مسحور بهذه الذبذبات الجاذبة، التي كان يصعب عليَّ تفسيرها، حيث كنت أتمنّى في تلك اللحظات المسكرة أن تنشق الأرض وتبتلعني لكثرة خجلي وارتباكي. أتمنى لو ينبت لي جناحان أحلّق بهما بعيداً، هرباً من تلك المشاعر المتناقضة، الكثيفة، الممتعة والمعذّبة في آنٍ معاً. في كل مرّةٍ كنت أجد نفسي متسمّراً في مقعدي، ألوذ في صمتي في غفلةٍ عنها، بينما هي مشغولة في تحضير المائدة بطقوسيتها المعهودة، وحينما تفرغ منها، تطلُّ علينا، بابتسامتها الساحرة، وبحركةٍ رشيقة راقصة من يدها الناعمة تقول: «تفضّلوا أيها السادة، العشاء جاهز!».

من أين لي في تلك الأيام، وأنا الولد العاثر، الأعزل، الخجول، أن أتحمّل كل هذا اللطف الساحر. لقد أرغمتني الأقدار أن أعيش متأرجحاً بين ضفّتي عالمين متناقضين على نحوٍ صارخ. بين عالم بيتنا الطيني المتواضع في حارة اليهود.. وعالم بيتها الفاره في حي الأزبكية الراقي بدمشق.

كان والدي يعمل مكوجياً، وقد استأجر دكاناً قريباً من بيت عمتي والدة رشا، وكنت أثناء العطلة المدرسية أذهب معه إلى دكانه، وفي أغلب الأحيان كان والدي يفضّل قطع المسافة مشياً على الأقدام، بينما أصرُّ على ركوب باص «مدحت باشا»، لكي أستمتع بمناظر الطريق، ولطالما أدهشني، وأربكني اجتياز الباص للباب المقنطر، الضيّق عند باب شرقي، (وهو الباب الوحيد الظاهر آنذاك، الذي كان أوسع من حجم الباص بسنتميترات قليلة قبل أن تكشف الحفريات عن الباب الآخر الحالي، الأكثر اتساعاً)، وفيما يحاول السائق على مهل، وبكلٍّ تأنٍ أن يوازن الباص، لتجاوز قنطرة الباب القديم، دون أي خللٍ من شأنه أن يحطّم نوافذه، يصرخ الجابي: «إيديكن لجوّا»، وبثوانٍ تمرُّ تلك اللحظة المشحونة، فأشعر بسعادة غامرة بعد توتّر، وكأننا خرجنا للتوّ من مغامرةٍ مجهولة النتائج.

كنت أندس في كل مرّة إلى النافذة بجانب والدي.. لأراقب الشوارع والساحات والأبنية، مأخوذاً، تجتاحني الخواطر والأخيلة، خاصةً حينما يمرُّ الباص بمحاذاة مقبرة الشيخ رسلان، التي لم تكن مسوّرة آنذاك، بينما تنتشر شواهد قبورها، مثل غابةٍ كثيفة، تمتدُّ على مساحة النظر. حينئذٍ يضعني مشهد القبور وجهاً لوجه أمام رهبة الموت، وصمته الجليل.. ومن ثمّ يتلوّن المشهد، حينما ينعطف الباص باتجاه «القصاع»، خاصة عندما يتناهى إلى مسامعي صوت أجراس الكنائس بإيقاعها الرتيب، الذي طالما أثار في نفسي الكثير من الفضول، والأسئلة الطفولية عن معنى هذه الطقوس ودلالاتها.

لم تكن غبطتي أقل، حينما كنت أرافق والدي إلى دكانه مشياً على الأقدام، حيث تصحو إيقاعات المدينة على صباحٍ جديد، وتتفتّح شيئاً فشيئاً على صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، أو أبو العنين

الشعيشع وهو يتلو آية من ذكر الحكيم، فيتصادى صوته بخشوع، من هذا المذياع، أو ذاك، من دكاكين السوق، فيما أصحابها منشغلون بترتيب بضائعهم، أو تنظيف الفسحات الصغيرة أمام محالهم، تمهيداً لاستقبال زبائنهم.

كنا نقطع المسافة، من حارة اليهود مروراً بحيّ القيمرية، وحي العمارة الجوّانية، ونمر قرب مزار السيدة «رقية»، فأقف إلى جانب والدي لقراءة الفاتحة بخشوع على روحها الطاهرة، ومن ثم نتابع السير باتجاه العمارة البرانية، وحينما نصل إلى مقبرة الدحداح، تستوقفني مقابر الشهداء الرخامية الفارهة، لتمايزها عن بقية القبور، ومرّةً أخرى تجتاحني الأخيلة، فأتصوّر الشهداء ملائكة نورانيين، يتجوّلون في الجنة سعداء، مطمئنين بحياتهم الأبدية. بعد ذلك نعبر باتجاه «الديوانية»، ومن ثم ننعطف باتجاه دكان والدي في حيّ الأزبكية الحديث، وحينما أنظر إلى تلك الأبنية الأنيقة، الهادئة، العبقة برائحة الياسمين الدمشقي، أتذكّر بيتنا المتهالك في قصر شمعايا، فأغص بمرارة، وأتخيّل نفسي رجلاً قوياً.. غنياً، يملك شقة فخمة في واحدة من هذه العمارات الحديثة.

أكثر ما كان يستوقفني في هذا المشوار الصباحي هو وجبة «السحلب» الساخن مع خبز السمون المعجون بالسمسم وحبة البركة. هذه اللحظة كانت بالنسبة لي من أكثر اللحظات متعةً وإثارة. كنت أنشغل في مراقبة البائع، وهو يقف خلف «حلّة» السحلب، يلبي الطلبات بهمّة وسرعة، يصبُّ السحلب في «زبادي» صيني، ويرشُّ فوقها من مرّش معدني ماء الزهر، وقليلاً من القرفة، ويناولها إلى زبائنه.

كنت أترك الملعقة جانباً، وألامس بشفتيّ حافة الزبدية، أرتشف منها، فتهفُّ رائحة القرفة وماء الزهر الزاكية، باعثةً النشوة في داخلي،

ثم وأنا في غمرة هذا الصفاء، أروح أسترق النظر إلى ملامح والدي السمحة، وقامته المتوسطة، فيبدو لي: أنيقاً ببذته الرمادية نفسها، التي لا يملك غيرها، وهو يعتمر الكوفية والعقال، التي تضفي على هيئته، بسنواته الستين، نوعاً من الوقار والتمايز، دون أن يخطر في ذهني للحظة واحدة أن الكوفية والعقال سيصبحان فيما بعد رمزاً وهوية.

كان الوقت الصباحي يمضي عليّ ثقيلاً في دكان والدي، بانتظار أن يأتي العصر كي أذهب إلى بيت عمتي «أم رشا»، لمشاهدة التلفاز هناك، الذي دخل البيوت في مطلع الستينيات.. لقد بات هذا الصندوق عالمي السحري الذي لا يقلّ إثارةً عن الجو الممتع الذي أقضيه مع رشا، وأبناء أختها الكبيرة، حيث أجد هناك متسعاً للعب في حديقة منزلهم، التي تحوي على وسائل ترفيهية لا أحلم بها ألعاب كهربائية.. ودرّاجة.. وأرجوحة.. وكتب أطفال.. كل ما في ذلك البيت راح يجذبني بشدّة، لكنه من جهةٍ أخرى، كان يذكّرني بقهر عيشي المزمن في فقره.

لم تكن رشا تعاملني بلطفٍ وحبٍ شديدين فحسب، بل تشعرني أني في بيتي، وهذا ما يزيدني غبطةً وإرباكاً، كذلك كانت عمّتي امرأة حنونة تقدّر وضع شقيقها، الذي يرفض بكبرياء أي مساعدة تحاول أن تقدّمها إليه قائلاً: «الحمد لله.. الأمور مستورة».

حصلت رشا على الثانوية العامة، ودخلت الجامعة لدراسة الأدب الإنكليزي. وفي المحصلة كانت فتاة مقبلة على الحياة بحيوية تقرأ الشعر، وتتابع آخر أخبار الموضة، تحبُّ السينما، وتنظّم رحلات مع صديقاتها وأصدقائها (شلّة الجامعة).. سمراء، جذابة، فارعة الطول، تفرد شعرها على الطريقة الغجرية، واضحة ورقيقة.

عندما صارت في السنة الرابعة، زارهم شاب خليجي من طرف أخيها سالم، يحمل لهم هدايا وأخباراً، ورسائل. استقبله والداها في

صالون الضيوف، وعندما دخلت رشا بالقهوة، سلّمت عليه وجلست، لكن الشاب كأنما أُصيب في مسٍّ. بعد أيام عاود زيارتهم، ثم تكرّرت زياراته أكثر من مرّة، مختلقاً ذرائع مختلفة، فقط لكي يشاهدها. كان يحمل شهادة دكتوراه في إدارة الأعمال من إحدى الجامعات الأمريكية، ويعمل في السعودية مديراً لشركة أمريكية مرموقة، وسبق له أن ساعد شقيقها سالم مساعدة قوية قبل أن يقف الأخير على قدميه.. وأيضاً هو رجلٌ وسيمٌ، هادئ ودمث، وفي المحصلة، أي فتاة ربما تعتبره «عريس لقطة»، لكن رشا استنكرت بشدّة مجرّد مفاتحة أهلها في رغبته بالزواج منها، وحين سألها والدها عن السبب، تبيّن أنه ليس لديها اعتراض جدّي على شخصية الرجل، على اعتباره في وضع اجتماعي وتعليمي ومادي تحلم به أي فتاة، لكنها بوغتت بفكرة الزواج من رجل خليجي، خاصة وأنها تعلم طبيعة الحياة المغلقة في السعودية، التي لا تناسب مزاجها الطليق، وحريتها التي تشعر أنها أثمن ما في الوجود، لذلك رفضت الفكرة من أساسها، فسافر الرجل خائباً، إلاّ أنه قرّر بينه وبين نفسه ألا يستسلم، وهناك في السعودية، التي انتقل إليها أخوها سالم، عاود طرح الموضوع معه، فبدأت سلسلة من الرسائل بين سالم وأسرته، مارس خلالها ضغوطاً شديدة على رشا، لقناعته أن 'شاهر' رجل مناسب لها أولاً، ولأن له مصالح معه لا يريد لها أن تتأثر سلباً.

حاول سالم إقناعها بأن الرجل منفتح، وصاحب عقلية متنوّرة، بحكم دراسته في أمريكا، وهو على ثقة بأنه سوف يسعدها، ولولا ذلك لما حاول إقناعها، فهي في كل الأحوال شقيقته، وزواجها أمرٌ مصيري لا يمكن اللعب به.

إعجاب رشا الأولي بشخصية الرجل، بالإضافة إلى الضغوطات التي مورست عليها، أربكتها، فظلت لفترةٍ مشوشة، غير قادرة على اتخاذ

قرار نهائي بهذا الشأن، إلاّ أنها حسمت أمرها أخيراً، بالموافقة على الزواج، شرط أن يعيشا خارج السعودية، إذا لم تستطع التأقلم مع نمط الحياة فيها.

كان «شاهر» على استعداد لتلبية أي طلب من طلباتها، فوافق على الفور على شروطها، لكن رشا لم تطمئن لموافقته السريعة، وظلت متشككة في مصداقيته، إذ كيف لها أن تثق بوعوده، وهي لا تعرف عنه الكثير. كانت تناقش هذه الهواجس مع أهلها، وتراسل شقيقها سالم، الذي راح يهدئ من مخاوفها قائلاً: «هل نسيتِ أنني هناك سأكون قريباً منكِ. أنتِ لستِ وحدك، ثم أنا أعرف شاهر جيداً وأثق بكلامه، وهو يريد سعادتك».

على الرغم من ذلك، ظلّت رشا مترددّة، وطالبت أن تستمر الخطوبة لفترة من الزمن، يحضر خلالها شاهر إلى دمشق، لكي يتعارفا على بعضهما عن قرب. كان هذا الأمر صعباً على شاهر لارتباطه بعمله، ومشاغله الكثيرة، وكان يريد أن ينهي الأمر خلال شهر واحد، أخيراً وافق على تأجيل الزواج حتى فصل الصيف، على أن يقضي معظم إجازاته في دمشق. خلال تلك الفترة أغرق شاهر رشا بالهدايا الثمينة من مجوهرات وألبسة، لكن الأهم أنه استطاع أن يقنعها بشخصه، وثقافته، وخبرته الواسعة في الحياة وهكذا تمّت مراسم الزواج، وسافرت معه إلى السعودية، لكنها بحكم اعتيادها الحياة المنفتحة في دمشق، قبل الزواج، لم تستطع – كما توقّعت – أن تتكيّف مع نمط الحياة المغلق في المملكة، حيث فرض عليها الحجاب أن تكون خيمة سوداء متنقّلة كباقي نساء المملكة، تخفي خلف جلبابها تقاطيع جسدها الجميل، الذي اعتاد رحابة الهواء والشمس، فيما راحت روحها الرهيفة التوّاقة للفرح والحياة، تذوي، وتغوص في أعماقها شيئاً فشيئاً، حابسةً اندفاعاتها الجارفة للعيش في فضاء حرٍّ طليق.

في ليلة من تلك الليالي المليئة بالرغبات، والأحلام، والرؤى، قرّرت رشا على نحوٍ جازم، لا عودة عنه، أن لا تركن، أو تستسلم لحياة «الحرملك» خلف أسوار قفصها الذهبي المغلق، لكي لا تجتر مع إيقاعه اليومي البطيء، عزلتها السميكة، الخانقة، لذا أبلغَتْ زوجها قرارها القاطع: إما أن ننفصل وأعود وحيدةً إلى دمشق، أو نهاجر معاً إلى أي مكان في الدنيا، بعيداً عن هذا المكان.

بعد نقاشات عقيمة بينهما، وأمام إصرارها العنيد على موقفها، كان لا بد له أن يرضخ لرغبتها، ويفي بوعده لها، وهكذا تنازل عن وظيفته، وسافرا إلى الولايات المتحدة.

من جهتي كنت توّاقاً دائماً لكي أسمع أخبار رشا، وعلمت فيما بعد من عمتي، أنها حصلت وزوجها على الجنسية الأمريكية، وحصل زوجها على وكالات تجارية للعمل بين المملكة والولايات المتحدة، ولطالما شعرت بالسعادة، كلما طلبت مني عمتي أن أكتب رسالة لرشا على لسانها. كنت أضع الأوراق البيضاء أمامي، وقبل أن أخط أية كلمة، كانت تمرُّ في مخيلتي كل تلك اللحظات المشحونة، الهاربة، التي جمعتنا معاً، بعدئذٍ أبدأ بكتابة الرسائل لها، المليئة (على نحوٍ موارب) بالشجن والحنين لتلك الأيام.

التحوّلات

أورثني الوضع المتداعي البائس الذي آل إليه «قصر شمعايا»، بعد بضع سنوات على سكننا فيه، نوعاً من الحزن الدفين، انعكس على سلوكي تحفظاً وتردّداً، وانطواءً على الذات، ربما لأنني شعرت بشكلٍ مبكّر بحسّي، قبل أن أدرك بوعيي حجم الهوّة الواسعة التي تفصل بين أوضاعنا كلاجئين فقراء.. وبين الآخرين.

لم يبق من «قصر شمعايا» الذي تخلّعت بوابته الخارجية سوى اسمه، حيث تحولت فسحتاه السماويتان بسبب اكتظاظ سكانه، وحاجتهم إلى توسيع غرفهم، إلى غابة من براكيات الخشب والزينكو.. والإسمنت متداخلة مع بعضها بفوضى وقبحٍ شديدين، بعد أن بنت كل أسرة تحويطة حول غرفتها من تلك المواد الرخيصة التي قضمت جزءاً من فسحة الدار، فحوّلتها إلى متاهة غرائبية، خاصةً بعد أن تيبّست الأشجار واُقتلعت، وتهدمت حواف الفسقية التي انقطعت عنها المياه، فحوّلها أحد الجيران إلى تحويطة ضمّها إلى غرفته، بينما تخلعت درابزينات الأدراج من أماكنها، وباتت أراجيح خطرة لأطفال الدار الأشقياء. كذلك تسرّبت الرطوبة إلى الجدران الخشبية المليّسة بالطين والتبن، وانفتحت فيها ثغرات راحت الجرذان تسرح وتمرح في جيوبها.

لم يكن بالإمكان مقاومة هذا الخراب الذي حلّ بالقصر الجميل، بسبب الازدحام الذي لم يستوعبه، وبسبب الفقر المدقع، الذي لم يجلب

معه سوى المزيد من البؤس، والتردّي، الذي بات حاجزاً نفسياً يمنعني من دعوة أصدقائي إلى بيتي، لا سيما أولئك الذين تعرّفت عليهم في المدارس الرسمية، بعد أن تركت مدارس «الأونروا»، ممّن ينتمون إلى أنماط مختلفة من أبناء العائلات الدمشقية، الأمر الذي عمّق إحساسي بالاغتراب الذي شعرت به بشكلٍ مبكّرٍ، مع الفوارق التي رسمت خطاً فاصلاً بين أسرتي وأسرة رشا.

أثارت عزلتي انتباه أقراني، وكنت ألاحظ بعض الوشوشات حولي، وفي إحدى المرات اختلفت مع زميل لي، ابن عائلة دمشقية غنية، كنت أمقته وأتحاشاه لسلوكه المتعالي الذي يثير الحنق والاشمئزاز في داخلي، كأن يتفاخر مثلاً باستعراض حزمة النقود التي يخرجها من جيبه أمام زملائه، حينما يريد شراء أي شيء من «بوفيه» المدرسة.. أو أن يتباهى بلباسه الرياضي المتميّز أثناء درس الرياضة، أو باستعراض مهاراته في لعبة كرة السلّة، كونه ينتمي إلى نادٍ خاص للتدريب على هذه اللعبة.

كان زملاء الصف يتزلفون إليه، ويحاولون التقرّب منه، وعلى هذا الأساس شكّل محوراً من المريدين حوله، بينما بقيت مع زميلٍ وحيد لي خارج تلك الدائرة، وعلى الرغم من فقرنا، وإحساسنا بالاغتراب كنا كلانا نتعامل معه بندّية، وجفاف رداً على تعاليه، الأمر الذي لم يرق له، ودفعه إلى سلوك عدواني سافر تجاهنا.

في أحد الأيام كنا نلعب كرة السلة أثناء درس الرياضة، فحدث احتكاك بيني وبينه غير مقصود من قبلي، فتلفّت نحوي غاضباً، وراح يشتمني: «شو مفكّر حالك.. كلك شقفة لاجئ فلسطيني.. بعتوا بلادكن.. وجايين تعملوا قبضايات هون».

طيّرت هذه الشتيمة صوابي، وأفقدتني السيطرة على أعصابي، فهجمت عليه، وضربته بقبضة يدي ضربة قوية مباغتة على وجهه،

فتفر الدم من أنفه، وتشابكنا بالأيدي. صرخ علينا الأستاذ، وتجمع الطلاب من حولنا يباعدون بيننا، وكانت النتيجة طردي من المدرسة لثلاثة أيام، على الرغم من ذلك، لم تهدأ النفوس، وراح يحشد مجموعته من حوله، ويهددني بالضرب بعد الخروج من المدرسة، لذلك صمّمت على كسر شوكته، وحينما خرجنا من المدرسة، خلعت حزامي الجلدي، وفعل صديقي الشيء ذاته، وهجمنا عليه وعلى مجموعته بشراسة وجرأة ورحنا نضربهم من جهة الحلقة المعدنية للحزام. بوغتوا بهذه الشراسة، فتفرقت المجموعة وبدأ التراكض في الشوارع المحيطة بالمدرسة، وتجمّع الناس حولنا، وأخذوا يفرقون بيننا، وعلى الرغم من التورمات والجروح والأذى الذي لحق بالجميع، إلاّ أن الاشتباك فُضّ قبل أن تأتي الشرطة وتلمّنا.

كان من الممكن أن أتغاضى عن الشتيمة، لو كانت من ذلك النوع الذي يتداوله الأولاد فيما بينهم، أما أن يطعنني في الصميم، ويمس وتراً حساساً في داخلي، فهذا كان أكبر من أن أهضمه، أو أصمت عنه.

عدت إلى المدرسة، بعد انتهاء مدة العقوبة، وكتبت تعهداً بحضور والدي، بعدم تكرار مثل هذا السلوك، لكني شعرت شعوراً خفياً مبطناً من ردة فعل زملائي حينما دخلت الفصل باختلاف نظرتهم تجاهي، ومنذ ذلك اليوم، راح ذلك المتعجرف يتحاشاني، ويحسب حسابي.

المرة الأولى التي كسرت فيها حاجز عقدتي، كانت حينما دعاني صديقي جورج بغدان إلى بيته، بعد سنتين على تعارفنا، عشت خلالها صراعاً داخلياً عنيفاً، فقد كنت باستمرار أرفض دعواته الملحاحة لزيارته، لا لشيء، بل فقط لكي لا أضطر إلى دعوته في المقابل إلى بيتي.

أمام إلحاح جورج الدائم لبّيت دعوته مرتين. الأولى في عيد ميلاده، والثانية في ليلة «الجمعة الحزينة»، رغبةً مني في التعرّف على

طقوس تلك المناسبة، لأن جورج يسكن مع عائلته في الكنيسة الصغيرة التي يرعاها والده القسيس في أحد أحياء دمشق القديمة.

على الرغم من توقي الشديد إلى فتح علاقة متبادلة مع جورج، لم أستطع تجاوز عقدتي ببساطة، لا سيما بعد أن راحت مجارير «القصر» تفيض بين فترةٍ وأخرى، مخلّفة وراءها مستنقعات من المياه والأوساخ الآسنة التي تنشر في الدار روائح كريهة، فيما الجيران يختلفون فيما بينهم على إصلاح المجارير.. وقد يصل الأمر أحياناً إلى شجارات وشتائم لاذعة.. إلى أن يتطوّع أحد الشبان إلى حفر أرضية الدار، ويتشجّع آخرون على مساعدته في تعزيلها، وتفريغها بوسائل بدائية.. ثم يتركون أكوام الأوساخ فترةً لكي تجف، قبل أن يتطوّع آخرون لإزالتها. كان من الصعب عليّ في تلك المرحلة من عمري المراهق أن أستوعب، أو أتقبّل هذه الحالة، دون أن تترك آثاراً سلبية مدمّرة عليّ، وكانت والدتي – من غير أن تدري – تمارس ضغوطاً إضافية عليّ، حينما تكرّر أمامي، وعلى مسامع الآخرين، أنني وحدي، بين أخوتي، المؤهّل إلى التقدّم في تحصيلي العلمي، ودخول الجامعة، لإنقاذ الأسرة من محنتها، إذا ما تخرجت، وسافرت إلى الخليج.

حمّلتني مراهنات والدتي مسؤوليات مبكّرة، أثقلت عليّ، خاصة حينما كنت أراها تشقى في لفّ السكاكر، لمساعدة والدي في سدّ حاجاتنا، حيث كانت تصحو في الصباحات الباكرة لإنجاز هذا العمل، وتوقظنا أنا وأخوتي لمساعدتها.. وكل ذلك الكد والتعب كان يهون عليها، أمام أحلامها بأن تراني أنا وأخوتي، وقد تعلّمنا، وتخرّجنا من الجامعة، لعل أوضاعنا تتحسن، على طريقة رشا وإخوتها.. الذين أنقذوا أسرتهم من قاع البؤس التي كانت غارقة فيه.

هكذا، عشت نوعاً من النوسان المرير بين الحلم والواقع، في

مرحلة سماتها العامة: الأحلام الجماعية العريضة، المناقضة لأحلام والدتي «الصغيرة» المشروعة. إذ لم يكن بإمكاني تجاهل أحلام والدتي، لكن اندفاعة الحلم الجماعي الكبير في تحرير فلسطين، وتحقيق الوحدة العربية، والاشتراكية والعدالة الاجتماعية حملتني مع جموع الفقراء واللاجئين من أمثالي على أجنحتها، للتطلّع نحو الفردوس المفقود، فاقتت على هذا الحلم، وتغذّيت من نسغه لحظةً بلحظة، قبل أن أغتسل بوحل الواقع، وينكسر الحلم مع تتالي الهزائم التي تركت أبناء جيلي مجرّد عراة، ظهورهم مكشوفة، أمام عنف التحولات التي عصفت بالمنطقة، فقلبت عاليها سافلها.

تفتح الصداقة

تعرّفت على صديقي جورج بغدان في أواخر ستينيات القرن المنصرم، عندما كنا طالبين في مدرسة القديس منصور بالعازارية، في العام الدراسي الأول، الذي تحوّلت فيه هذه المدرسة إلى ثانوية عامة، تابعة إدارياً إلى الدولة، بعد قرار الحكومة تأميم المدارس الخاصة، ومن بينها بعض المدارس التابعة للكنائس، كثانوية القديس منصور، وثانوية العناية التابعة لبطريركية الروم الكاثوليك، وثانوية القدس للبنات التابعة لإحدى الرهبانيات وغيرها..

جاء تأميم المدارس الخاصة، على أرضية دعم التعليم المجاني، وقد أثارت هذه الخطوة في حينه، انتقادات بعض الأوساط الاجتماعية والتعليمية، لكن أياً منها لم يصل إلى مستوى الاحتجاج، ورفع الصوت، مع اجتياح الشعارات الساخنة القومية والاشتراكية الشارع آنذاك.

تمّ التعارف بيننا على إثر مشادّة كلامية، كادت تصل إلى عراك بالأيدي، لولا تدخّل بعض الزملاء، الذين وقفوا حائلاً بيننا، ولطالما ضحكنا فيما بعد، كلما تذكّر أحدنا تلك الحادثة.

بقي جورج أثناء الفرصة في غرفة الصف، ليخطّ بعض الجمل الأدبية على السبورة، ربما بدافع التمايز، الذي يتوخّاه المراهق في تحديه لأنداده، حيث ملأ السبورة ببعض الكلمات التي جادت بها قريحته الأدبية، وبينما هو مستغرق مع ذاته، تلفّت فجأةً، فشاهدني واقفاً خلفه، أقرأ

باهتمام ما يخطّه من كلمات، فأبدى انزعاجه الشديد، واعتبرني أتلصّص على شأنٍ خاصٍ به، فأجبته بسخرية: «ليش عم تكتب على اللوح إذا ما بدّك حدا يقرا شو عم تكتب»؟!

أجّجت إجابتي غضب جورج، فراح يشتمني بانفعال، لكنني بقيت صامتاً، أنظر إليه نظرات تحدٍّ ثابتة، باردة اخترقت كيانه كله. بعد أيام انتهز الفرصة لكي يعتذر مني، لأنه شعر بسخف موقفه، فكان هذا اللقاء بداية لصداقة عميقة بيننا، صمدت أمام امتحانات الزمن، وتقلباته، على الرغم من الاختلافات الكثيرة فيما بيننا، التي كانت كفيلة بأن تبقينا بعيدين عن بعضنا، فهو ابن قسيس أرثوذكسي، راعٍ لكنيسة قديمة في حيّ الميدان بدمشق، وأنا ابن عائلة إسلامية محافظة، ولاجئ فلسطيني، يعمل والدي «مكوجي» و«منشد» في الموالد الدينية، أي كلانا من بيئتين شديدتي الاختلاف مذهبياً واجتماعياً. على الرغم من ذلك ثمة شيء خفي راح يشدنا لبعضنا، إذ اكتشف جورج أني، وعلى عكس انطباعه الأولي عني، لست شخصاً فضولياً على الإطلاق، بل أنا منطوٍ على ذاتي، ولا أرغب كثيراً الاختلاط بالآخرين، وأعاني عزلة من نوعٍ ما، ومن جهته كان يعاني شيئاً من الفراغ، بعد انتقاله من مدرسة «الآسية» وافتقاده لأعز أصدقائه «فواز كرّو»، الرسّام الموهوب، الذي كان يشكّل معه ثنائياً متفوقاً على أندادهما، ليس من باب الاجتهاد الدراسي، لأنهما كانا عاديين على هذا المستوى، وإنما من باب موهبة الرسم لدى فواز، ولوثة بذور الكتابة الأدبية لدى جورج.

راحت علاقة الصداقة فيما بيننا تتعمّق شيئاً، فشيئاً، وبدأ جورج يلاحظ الحَرَجَ والتردّد على ملامحي، خاصة حينما يلتقي مع فواز الذي يبادر إلى عناقه، ثم يوزّع تعليقاته المرحة، الصاخبة، مطلقاً ضحكات مجلجلة، يشاركه بها جورج بنفس الشهية، بينما أظل متحفظاً، وعلى

مسافة منهما، نائياً بنفسي عنهما، وبعد خطوات، كنت أعتذر منسحباً على الرغم من إلحاح جورج الشديد عليّ، لكي أرافقهما.

ظنّ جورج في البداية أنني لم أنسجم مع فواز بسبب صخبه، ووضوحه الشديد، وسخريته التي تصل حدّ الفظاظة أحياناً، الأمر الذي يتناقض مع حساسيتي الشديدة، وهدوئي الذي يبدو وكأنه برودة، على الرغم من حرارة وغليان المشاعر الداخلية التي تنتابني.

في المحصلة كنت على النقيض من فواز، ففي الوقت الذي أنكفئ فيه نحو الداخل، محاولاً ما أمكن إخفاء انفعالاتي، كان فواز صدامياً ومباشراً في التعبير عن عواطفه وآرائه، بيد أن وراء هذا المظهر الخارجي لكلينا، هناك الكثير من الصفات المشتركة بيننا.

كنت أشعر أنني قريب جداً من جورج، ولكن بحضور فواز يراودني شعور آخر: أن لا مكان لي بينهما، ومن جهته راح جورج يبذل جهوداً للتقريب بيننا، فكان أشبه بالعبّارة، يجمع في شخصه الكثير من صفاتي، وصفات فواز على الرغم من أنه لون ثالث مختلف عنا كلينا.

اضطُرت عائلة فواز السريانية، إلى مغادرة مسقط رأسه في مدينته الصغيرة (القامشلي) في أقصى الشمال الشرقي، والنزوح إلى دمشق بسبب ملاحقة السلطة للشيوعيين أواخر الخمسينيات في فترة الوحدة بين مصر وسورية. دخل والده المعتقل أكثر من مرة، ولوحق بسبب نشاطه السياسي، مما اضطره أخيراً إلى الانتقال مع عائلته إلى دمشق، والتخفّي فيها، وبعد أن تغيّرت الظروف السياسية في البلد، كانت العائلة قد اعتادت الحياة في دمشق، وفضّلت الاستقرار فيها.

طبيعة فواز المنفتحة جعلته لا يتوقف، أو يسأل عن مذهب هذا أو طائفة ذاك.. فهو شخص متحرّر بالفطرة، وغير متعصّب لدينٍ أو مذهب، أو فكرة قومية، ربما بسبب بيئة الشمال السوري آنذاك، التي يتعايش

داخلها الكثير من الطوائف، والإثنيات من سريان وآشوريين ومسلمين، ويهود وأرمن، وأكراد، وتركمان.. وربما بسبب علمانية والده الذي ورّثه نظرة منفتحة إلى الإنسان بوصفه إنساناً، بعيداً عن مذهبه الديني، أو انتمائه القومي.

صقلت موهبة الرسم المبكّرة شخصية فواز، ومنحته القوة والثقة بالذات، لشعوره بالتمايز، والتفرّد الخاص، لكنّ ثمة خيط واه كان يفصل ما بين هذه الثقة التي تعمّقت مع الأيام، وما بين الغرور الذي يطغى أحياناً على سلوكه، لكنه سرعان ما يقمعه، ليعود إلى التوازن الأصيل في شخصيته.

لاجئون في الحي اليهودي

دُهشت لرفض أحمد المتكرّر دعواتي له لزيارة بيتي، فهو في كل مرّةٍ يجد سبباً خجولاً للاعتذار، ولاحظت في المقابل أنه لم يدعُني مرّة لزيارة بيته، وعلى الرغم من أنني لم أتوقف كثيراً عند هذه المسألة، مخمناً وجود بعض الأسباب الخاصة التي تمنعه من دعوتي.. إلا أن رفضه المتكرّر لدعواتي أزعجني، بل أثار حفيظتي في إحدى المرات، حينما اقترحت عليه تغيير طريقي، ومرافقته إلى حارة اليهود بالقرب من بيته. قلت له: «اليوم ماني مرتبط مع فواز.. شو رأيك نتمشى باتجاه حارة اليهود.. وبعدين بركب الباص من بستان القوتلي لباب المصلّى»؟!

ظهرت عليه علامات الحَرَج والإرباك، على الرغم من ترحيبه بالفكرة، وأخذنا نتبادل أطراف الحديث، إلا أنه لم يكن على سجيته كالعادة، وحينما دخلنا دهاليز حارة اليهود سألته بفضول: «كيف سكنتوا هون؟!» نظر إليّ نظرةً مواربة وقال مرتبكاً: «نحنا مش لحالنا ساكنين هون.. في تجمّع كبير للفلسطينيين في حارة اليهود بيشبه أي مخيم من مخيماتهم»، ثم صمت للحظة وأضاف: «بتحكيلنا إمي، إنو أول ما إجوا من فلسطين سكنوا بجامع بسوق ساروجة، وكانت العيل تعلّق شراشف حتى ما يكشفوا بعضهم، لكن لي خال طويل كتير، لما ينام كانت توصل رجليه لعند الجيران. لهيك لما فتحوا بيوت اليهود في الحارة، صار امتياز

إلك إذا حصلت على غرفة، وكان حظ أهلي كتير منيح لأنهم أخذوا غرفة في قصر شمعايا».

ثم تلفّت إليّ، وابتسامة ساخرة متأسّية على وجهه وأضاف: «نحن ساكنين بقصر فعلي.. لكن يا ريتك تشوف شو صار بهالقصر بعد ما سكنا فيه!»

مرّت لحظة صمت ثقيلة قبل أن يضيف: «الناس طيبين وبسطا.. وقلوبهم على بعضهم.. بس لما بتحشرهم بمكان ضيق.. متل قطيع شو بتتوقع يصير فيهن..»..

قال جملته الأخيرة، ثم ودعني ومضى في طريقه.. فأُصبت بخيبة أمل شديدة، واستغربت حساسيته المفرطة التي اعتبرتها غير مبررة، فأنا أتعاطف معه، وسؤالي له كان من باب الرغبة في معرفة المزيد عن حياته، والتقرب منه.

انتهى العام الدراسي.. ومضت العطلة الصيفية بأكملها دون أن ألتقي به، وعلى الرغم من وجود رقم هاتفي معه، إلا أنه لم يتصل بي مطلقاً، ولم يكن لديّ وسيلة للاتصال به، وكانت أحداث هزيمة حزيران 1967 تلقي بظلالها الثقيلة على المناخ العام في المنطقة، وبدأت أخبار العمليات الفدائية تلهب مشاعر الناس، وتعيد إليهم شيئاً من التوازن الذي فقدوه.

اقترح عليّ فواز في أحد الأيام أن نلتحق بالمقاومة الفلسطينية، التي بدأت تظهر إلى العلن. فاجأني الاقتراح لأنني لم أفكّر بمثل هذا الأمر من قبل، وكنت أظن أن الالتحاق بالفدائيين هو وقفٌ على الفلسطينيين وحدهم.

قلت لفواز: «لو فينا نتصل بأحمد، لأنو بيعرف أجواء الفلسطينيين وفينا عن طريقه نلاقي مدخلاً مناسباً». ردّ عليّ فواز بطريقته القاطعة:

«الموضوع لا بدّو أحمد، ولا غيرو. إذا كنت مقتنعاً بالفكرة، هلأ فينا نروح على معسكر 'فتح' بالهامة ونتطوّع. هوّ مفتوح للجميع. عرفت إنن بيعملوا هنيك دورات عسكرية للمتطوعين، لحتى يتدربوا على السلاح والمتفجرات.. وبعدين بيلتحقوا بقواعد الفدائيين في أغوار الأردن.. شو قلت»؟.

تردّدت بعض الشيء، لكنني أمام اندفاع فواز وحماسه الشديد، لم أرغب في إظهار تردّدي، وبعد أيام ذهبت معه بالفعل إلى معسكر الهامة، وكان يغصُّ بالفدائيين. بعضهم يرتدي بدلات عسكرية زيتية، وبعضهم بدلات مبرقعة، ويحملون «الكلاشينكوف» والرشاش الصيني الأسود.

قابلنا مسؤول هناك، سأل عن عمرينا، وجنسيتينا، وعرف أننا سوريان. سجّل بعض المعلومات عنا في سجلٍّ خاص لديه، وبعد ثنائه على حماستنا قال لنا: «فش عنا دورة جاهزة هلأ. بدنا ننتظر شوي حتى يكتمل العدد، بس شو رأيكن تقوموا بشي مفيد للثورة. نحنا بحاجة لعناصر لترتيب مستودعات الأمتعة والذخيرة.. شو.. عندكن استعداد للعمل؟».

أبدينا الموافقة، وعملنا أسبوعين كاملين أعمالاً شاقة، كانت كفيلة بأن نغير رأينا. أفصحت لفواز بخجل عن رغبتي في ترك المعسكر، قلت له: «نحنا جينا نلتحق بعمل عسكري، مو نعتّل» لم يبدِ فواز ممانعة كبيرة، وهكذا انتهت هذه التجربة القصيرة، قبل أيام على إغارة الطيران الإسرائيلي على هذا المعسكر، الذي أُغلق بعد فترة.

فتحت المدرسة أبوابها بعد انتهاء العطلة الصيفية، وكنت متشوقاً لرؤية أحمد، لكي أنقل له خبر تجربتنا مع الفدائيين، لكنه لم يحضر. مضى الأسبوع الأول، ثم أسبوع ثان، ثم أسبوعان آخران، ولم يلتحق

بالمدرسة، وكدت أقطع الأمل، معتقداً أنه انتقل إلى مدرسة أخرى، فقررت البحث عن عنوانه، لكني فوجئت به في اليوم التالي قادماً إلى المدرسة بلباس الفدائيين. ذقنه طويلة، وقد لوحت الشمس وجهه. تحلّق حوله زملاء المدرسة يبادلونه التحية بحرارة، وحين وقعت عيناه عليّ، اقتربنا من بعضنا، وتعانقنا بقوة، ورحت أنظر إليه غير مصدّق. لقد شعرت أن شيئاً ما به قد تغيَّر، لكنني لم أستطع تحديد ماهيته.

واجه أحمد بسبب غيابه، مشكلة عويصة مع إدارة المدرسة، وكان قرار فصله جاهزاً، لكنه بطريقة ما، تدبّر أمره. لم أذكر أمامه أي شيء عن تجربتي مع فواز في معسكر الهامة، لأنني شعرت بتفاهتها أمام بقائه أربعة شهور في أغوار الأردن، ومن يومها صرت أنظر إليه بعيون مختلفة، وكذلك فواز، الذي أخذ يبدي اهتماماً متزايداً به، ويسألني عنه كلما التقينا.

بدأ فواز في تلك الفترة ينشر رسوماته الكاريكاتورية بانتظام في صحيفة لبنانية، وقد منحته هذه التجربة المبكّرة تميّزاً بيننا، وصرت أقترح عليه أحياناً بعض الأفكار التي يحولها إلى رسومٍ كاريكاتورية لاقت صدىً، وراح أحمد يشارك في الحوار حول الرسومات، ويبدي ملاحظات حولها يهتم لها فواز كثيراً، ثم فتحت هذه الحوارات فيما بيننا أفقاً للنقاش والقراءة حول قضايا سياسية كثيرة، وبات الحديث في السياسة خبزنا اليومي، وعلى الرغم من ذلك ظلَّ أحمد ينأى بنفسه عنا، تاركاً مسافة بينه وبيننا. هذا الغموض أشعرنا أن هناك جانباً سرياً في حياته وعلاقاته، يشكّل الحيّز الأهم من انشغالاته، ولسبب ما، لا يرغب في الإفصاح عنه، والغريب أن هذا الأمر لم يزعجنا أنا وفواز، بل على العكس زاد من احترامنا له، لا سيما حينما بدأ يجلب معه بين فترة وأخرى رزمةً من البيانات السياسية والعسكرية

عن العمليات الفدائية، ليوزّعها على طلاّب المدرسة، وغالباً ما كانت تثير نقاشات حامية بيننا.

من جهتي وعلى الرغم من اهتمامي بالأدب والثقافة أكثر من اهتمامي بالسياسة، إلاّ أن علاقتي مع أحمد، وعمل فواز بالكاريكاتير السياسي فتح الباب أمامي نحو الاهتمام بالسياسة أكثر فأكثر، الأمر الذي قرّب المسافات بيننا.

وهج الحوار

كان بإمكان أحمد أن يصل إلى بيته خلال ربع ساعة على أبعد تقدير، لأن مدرستنا في العازارية لا تبعد كثيراً عن حارة اليهود، بيد أنه كان يفضّل في كثير من الأحيان أن يرافقني، لكي نتبادل الحديث في مواضيع شتى لا تنتهي. كنا نسير مشياً على الأقدام مسافات كبيرة، نقطع خلالها قوساً حول المدينة، بدءاً من ساحة باب توما، فشارع بغداد، فالسبع بحرات، ومن ثم ننعطف باتجاه شارع 29 أيار، فساحة الحجاز، وبعدها نجتاز شارع النصر حتى نصل إلى خلف القصر العدلي، ومن هناك أستقل باص «الميدان»، بينما يركب هو باص «مدحت باشا» لكي يعود إلى النقطة التي انطلقنا منها تقريباً.

أضحى هذا المشوار اليومي بالنسبة لكلينا واحة دفء، وبوح، وحوار، واكتشاف للذات، وللعالم من حولنا. لم يبق شيء لم نتحدّث عنه بتدفّق وعفوية، وانفتاح داخلي. كنت أبوح أمامه بهواجسي وأحلامي ومشاكلي. أحدّثه عن عذابات حبي لابنة عمي لينا التي أصفها بـ«البرجوازية التافهة»، لأنها تتعالى عليّ، فيضحك من كل قلبه لهذا الوصف، وكان ملك الإصغاء، يجيد فن الاستماع، ويلتقط دائماً مفاصل مهمّة في الحديث يبني عليها ملاحظاته، التي غالباً ما كانت تدهشني، وما برحت أكتشف جوانب جديدة في شخصيته، حيث بدا لي أن جانب التحفّظ عنده، ليس سوى نوع من الآليات الدفاعية، التي يختبئ خلفها،

لأنه بات أقلّ تكتّماً، وراح يحدّثني عن ظروف عائلته الصعبة، وعذابات اللاجئين بشكلٍ عام.

في إحدى المرات، حين وصلنا إلى النقطة التي نفترق عندها عادةً، تردّدت قليلاً، فقد أردت أن أقول شيئاً، ثم ابتلعته. إذ لم يكن بحوزتي أجرة الطريق، وخجلت أن أطلبها منه، بيد أنه لاحظ تردّدي فسألني: «في إشي؟».

قلت بتلكؤ: «بصراحة ما معي أجرة الطريق.. وبدّي أكمل طريقي للميدان مشي».

نظر إليّ نظرةً متأسّية، وقد اصطبغ وجهه بالحمرة، وبسرعة مدّ يده إلى جيبه، وأخرج قطعة نقدية من فئة «الفرنكين»، ناولني إياها، فرفضت قبولها، لكنه أصرّ عليّ إصراراً شديداً، مهدّداً بقطع علاقات صداقتنا إذا لم آخذها. تناولتها بحَرَجٍ، ثم ودّعته، ومشيت بضع خطوات، توقّفت، وتلفّت، فرأيته ما زال واقفاً مكانه. رفعت يدي ملوّحاً له ومضيت. كانت أجرة الباص آنذاك «فرنكاً» واحداً. في آخر لحظة، وَمَض في ذهني خاطرٌ: «ربما لا يملك سوى هذه القطعة النقدية» فعدت أدراجي مسرعاً نحوه وسألته بلهفة: «معك غيرها؟!».

ردّ متلعثماً: «شو بدّك إنت.. خَلَص روح».

قلت له: «لحظة.. تعال معي»، واندفعت باتجاه «كشك» لبيع الصحف. صرفت القطعة النقدية، وأعطيته «فرنكاً» وأخذت الآخر ومضيت.

أثّرت هذه الحادثة فيّ كثيراً، خاصةً حينما دعوته بإلحاح إلى حفلة عيد ميلادي بعد فترة قائلاً له: «هذه المرّة، لن أرضى أي عذر لرفض دعوتي. هامساً في أذنه: «جاي لينا على عيد ميلادي وحابب نتعرّف عليها، وتعطيني رأيك». فهزّ رأسه موافقاً بحرجٍ ودود.

دعوت إلى حفلة عيد ميلادي فواز، وصديقاً آخر لي من مدرسة «الآسية» اسمه موسى. كان يسمّيه فواز بـ«قارض الكتب»، لأنه يهتم بالمطالعة أكثر بكثير من اهتمامه بكتبه المدرسية. كان يمتلك مكتبة كبيرة تضمُّ عدداً كبيراً من روايات نجيب محفوظ، ودوستويفسكي، ويوسف إدريس، ولوركا، ونيرودا، وبدر شاكر السياب، والماغوط، وطه حسين، والمازني، ومحمد عبده.. وغيرهم من الشعراء والكتّاب..

كان موسى شخصاً استثنائياً، رغم فوضوية سلوكه، وتغيّبه المستمر عن المدرسة، التي ينظر إليها باستخفاف شديد، على اعتبار أن المنهج المدرسي برأيه هو منهج تلقيني بليد. كان همّه محصوراً في الحصول على الشهادة الثانوية، والحلم بالسفر إلى أوروبا لكي يدرس هناك الإخراج السينمائي.

حضّرت والدتي مائدة عامرة بالمازاوات من كل الأصناف: تبولة، وكبّة نيّة، ومقلية، نقانق ولحومات باردة: زنود البنات، وبصطرما، ومرتديلا طليانية، وأنواع متعدّدة من الفاكهة، إضافةً إلى قالب «كاتو» مزيّن بالكريما.. تعلوه الشموع.. وأحضر والدي أنواعاً متعدّدة من المشروبات الروحية، فإضافة إلى «العرق»، و«البيرة» جلب أنواعاً فاخرة من النبيذ..

جاءت لينا مع عمي وهو ضابط، في الجيش، ووالدتها وأخيها.. وكانت ترتدي تنورة قصيرة، وبلوزة خفيفة تظهر مفاتنها، وانشغلت شقيقتاي الصغيرتان سلوى وأنطوانيت بتحضير المائدة، والفضول يأكلهما للتعرّف على أحمد، لكثرة ما حكيت لهما عنه.

تحلّق الجميع حول المائدة، وبدأ القلق يساورني لتأخّر أحمد، فقد خشيت أن لا يتعرّف إلى عنوان البيت، على الرغم من أنه لا يضيّع أحداً، فهو يقع داخل الكنيسة الوحيدة في المنطقة.

بعد قليل رنّ الجرس، فنزلت أنطوانيت بسرعة لتفتح الباب، وقفزت متلهّفاً لاستقباله.

دخل، فبدت على ملامحه علامات الحَرَج والدهشة، فالجو غريب عليه تماماً، فهو لم يألف في بيئته مثل هذه المناسبات، ولم تطأ قدماه حرم كنيسة من قبل. صافح الحاضرين، وعانقني بعد أن سلّمني علبة صغيرة، هدية ميلادي، ثم جلس إلى جانب فواز.

حين وقعت عيناه على موسى سأله بشيءٍ من المواربة: كأني أعرفك. ردّ موسى: وجهك ليس غريباً عليّ. فيما بعد أخبرني أحمد أنه يعرف هذا الوجه من خلال الحارة، وغالباً ما يصادفه في طريقه.

صبّ الخوري كأس عرق وقدّمه لأحمد، لكنه اعتذر بتهذيب شديد، فأنقذت الموقف قائلاً: ما رأيك بكأس نبيذ خفيف؟! فأومأ برأسه موافقاً.

كانت المرة الأولى التي يتناول فيها مشروبات روحية، وشيئاً فشيئاً، مع صخب الموسيقا، والضحك، والتعليقات اللمّاحة، راح ينفرد قليلاً، ويتخلّص من تحفّظه، بيد أنه حينما بدأت بفتح الهدايا أمام الجميع – كما جرت العادة – مع رفع الأنخاب، وتبادل التهنئة، انكمش في مقعده، ظناً منه أن هديته بسيطة، ولا تليق بالمناسبة، بالمقارنة مع هدية موسى التي كانت الأجزاء الكاملة لرواية تولستوي: «الحرب والسلام»، وهدية فواز التي كانت واحدة من لوحاته، فيما قدمت لي لينا ساعة سويسرية ثمينة. حين وصلت إلى هديته، فتحتها بأصابع مرتجفة، ثم ابتلعت ريقي قبل أن أعلّق عليها، لأنها كانت مفاجأة كبيرة لي، هزّت كياني بقوة، فقد كانت العلبة تحتوي على قطعة نقدية من فئة «الفرنكين» مقطوعة من النصف، ومثبّت على طرفها حلقة صغيرة، مع حمّالة «ميدالية»، يبدو أنه احتفظ بنصفها وأهداني النصف الآخر. نظرت إليه بتأثّر، وتعانقنا عناقاً

حاراً، ثم رفعت الكأس، ومرّت لحظة صمت، قبل أن أروي لهم قصة الهدية بانفعال شديد. فقرع الجميع الكؤوس، وشربوا نخب الصداقة.

رغم معرفة أحمد أن موسى يهودي يسكن في نفس الحي، لكنه لم يعلّق على الأمر، ولم يسألني عن طبيعة العلاقة التي تربطني به، لكنني فاتحته بالموضوع بعد أيام قائلاً: «بالمناسبة موسى شب رائع جداً، ومثقّف، تقصّدت أن يكون بالسهرة حتى تتعرّف عليه. هو ماركسي، معادي للصهيونية، ومتعاطف مع القضية الفلسطينية». هزّ كتفيه، واكتفى بالقول: «هادا شأنك.. أنا ما بتدخّل بالأمور الشخصية.. وما بفرض عليك كيف تختار أصدقاءك».

رددت: «يعني ما عندك رغبة تلتقي معو؟! على كلٍّ هو بدّو ينتقل لمدرستنا وبكرا بتتعرّف عليه منيح». علّق: «مش هون المشكلة.. أنا أحياناً بحكي مع جيرانا اليهود، لكن دايماً في عندي شعور إنو في فجوة بينا وبينهم. يمكن الموضوع نفسي. ما بعرف».

بعد مرور عدة اشهر على حفلة ميلادي.. كنا خارجين من المدرسة، فسمع أحمد تراتيل حزينة بصوت فيروز يتردّد صداها في كل مكان من حواري باب توما.. ولفت انتباهه تجمهر الناس على طرفي الرصيف، فيما كان موكب الكشّافة بالمشاعل والطبول والآلات الموسيقية يخترق الطريق.

قلت: «هادا الموكب احتفال بالجمعة الحزينة. شو رأيك تيجي بكرا لعندي بالليل، وتحضر الاحتفال. الجو كتير حلو بالكنيسة».

كان لديه الكثير من الفضول لمعرفة تلك الطقوس، فوافق على الدعوة دون تردّد.

الجمعة الحزينة

من الصعب أن أصف المشاعر التي انتابتني تلك الليلة. كل شيء بالنسبة لي كان غريباً، ومدهشاً وغير مألوف. أحاطني جورج، وشقيقتاه، سلوى وأنطوانيت بالعناية والترحاب الشديدين، ولاحظت أن جورج بحساسيته المرهفة أراد أن يبدّد ارتباكي، فبالغ بالاهتمام بي. كان يقدمني إلى أصدقائه ومعارفه، الأمر الذي زادني انكماشاً.

شعرت أن اسمي وحده يفضح اغترابي عن المكان، الذي بدا لي احتفالياً رائعاً، مع ضباب البخور وعبقه الذي انتشر في فضاء الكنيسة العتيقة، المتلألئة بأضواء الثريات التي تنعكس ظلالها على الأيقونات الأثرية القديمة.. بينما أضفت الهيئة المهيبة للخوري بتاجه، ولباسه المقصّب الخاص بهذه المناسبة، والصليب الكبير الذي يتدلّى على صدره نوعاً من الهالة المؤثرة الخفية، اندغمت مع قوة الحياة وجمالها المنبعثة من خفر الصبايا الجميلات، ونظراتهن المختلسة للشبان الذين اجتمعوا في أروقة الكنيسة، من أجل حمل النعش الرمزي للسيد المسيح المكلّل بالورود.. يتقدمهم الأطفال حملة الشموع.. وراح صدى التراتيل المهيبة يتردّد في أرجاء الكنيسة.. مع تحرّك الموكب الرمزي حول المذبح، فشعرت وكأنني أحلّق في عوالم سحرية حملتني على أجنحتها إلى عالم بعيد.. قصي.. غامض..

لاحظت القلق على جورج لتأخر لينا، فهو في كل مرة، يلمّح أمامها

تلميحاً خفيفاً مواربا حول مشاعره المتأججة نحوها، بينما هي تعامله بتهذيب شديد، ونعومة. تبادله المزاح، والأحاديث اللطيفة، لكنها لا تنسى أبداً، أن تترك بينهما مسافة ما ملتبسة، تفصله عنها ببرودة وترفّع. هذا الأمر كان يُغضبُ جورج إلى حدّ الجنون، ويدفعه في الآن ذاته إلى عدم البوح الصريح بمشاعره الحقيقية أمامها. لقد حيّره أمرها، فهي لم تكن تغلق الباب تماماً أمام تقلّبات أهوائه واندفاعه الحار نحوها أحياناً، وازدرائه الشديد لها، الذي يصل حدّ العدوانية أحياناً أخرى، لكأنها كانت تدرك بحسّها الأنثوي النار التي يتقلّب عليها، فاستمرأت اللعبة، دون أن تشعر بحجم الأذى المعنوي الذي يلحق به، ويهين كبرياءه ويجرحه في العمق. لكأن روحه كانت معلّقة في الفراغ رهن إشارة منها. ابتسامة واحدة منها كانت كفيلة أن تشعره بالسعادة وتحلّق به إلى السماء السابعة، وفي الآن ذاته نظرة عابسة منها كانت كفيلة بأن تهبط به إلى الحضيض.

جاء فواز.. ومعه موسى، فاقترح جورج أن نصعد إلى غرفته الصغيرة (العلية) التي تطل على الكنيسة من الداخل، لمتابعة الاحتفال من هناك، ثم ذهب وعاد بزجاجة نبيذ معتق، وسلّة فاكهة.

راحت الخمرة تدور في رؤوسنا، لكن التوتر بدأ يظهر بشكلٍ واضح على ملامح جورج، الذي لم يستطع أن يخفي قلقه وانزعاجه لتأخر لينا، وأهلها عن حضور الاحتفال. بين الفينة والأخرى كان يخرج، ويسترق النظر إلى الحشود المجتمعة في الكنيسة، ثم يعود مكفهراً.. لاعناً حظه العاثر. بعد منتصف الليل بقليل، تفتحت أساريره عندما شاهد لينا تهلُّ بكبرياء وأناقة أميرة أرستقراطية، بمعطفها الجوخ الأسود، لكنه وبدل أن يسرع للقائها جلس في مكانه صامتاً، مترفّعاً. ضحك فواز مقهقهاً، وشاركناه الضحك على هذه المفارقة المفضوحة في سلوك جورج وعلّق فواز بلسانه السليط على خيبة العاشق الحزين.

قال لجورج: «ليش تخشبت مكانك متل الأجدب. قوم تحرّش فيها. ناديها تشرب كاس معنا.. شو قصتك.. إنشا الله منتظر تيجي لعندك؟»

بلع جورج ريقه الذي جفّ في حلقه، محاولاً ما أمكن أن يظهر عدم الاكتراث، بينما بقيتُ صامتاً، متعاطفاً مع جورج، لكنني في دخيلتي كنت أؤيد رأي فواز، الذي كان عملياً وأكثرنا جرأةً في مثل هذه المواقف.

من جهته لم يكترث موسى كثيراً للموضوع، وكان مشدوداً للحديث في مواضيع أخرى، ربما لتخفيف الوطأة عن جورج وإلهائه بشيء آخر، فراح يحكي عن الفروقات بين الفصح اليهودي.. والفصح المسيحي، وأدهشنا لغزارة معلوماته فقال: حسب ما جاء في العهد القديم في سفر الخروج، الفصح في المفهوم اليهودي ينقسم إلى ثلاثة أجزاء، الجزء الأول هو التهيئة في الطعام والهيئة، الثاني هو العبور، الثالث هو الوصول إلى الأرض التي تدر لبناً وعسلاً أي الأردن وفلسطين. يروي سفر الخروج كيف خرج بنو إسرائيل من أرض مصر، ثم عبروا البحر، وغرقت مراكب فرعون التي لحقت بهم، ثم تاهوا في صحراء سيناء أربعين عاماً.. إلى أن وصلوا إلى الأردن. فالتهيئة اليهودية هي عملية استنفار للطعام والرحيل للخلاص من الأوضاع الصعبة التي كان يعيشها اليهود في مصر.

علّق جورج: اليهود رحلوا إلى مصر طمعاً بالطعام الذي صار نادراً في فلسطين في ذاك الوقت، وعندما أرادوا الرحيل من مصر أعارهم المصريون الألبسة والأطعمة فسرقوها كما ورد في نص سفر الخروج الذي تتحدث عنه، وإذا كان المسيحيون يصومون في مرحلة التهيئة أربعين يوماً ترمز إلى الأربعين عاماً التي تاه فيها اليهود في الصحراء، فاليهود في الصحراء لم يصوموا، بل أكلوا المن والسلوى.

قال موسى: أنا لا أتحدّث عن قناعتي الشخصية بالموضوع، لأن لي رأي آخر، وإنما أتحدث عن الجذور التي شكّلت الأديان والطقوس.

الفصح في المسيحية له شكلان غربي وشرقي، وفي كلا الشكلين حافظ على تراتبية الأقسام، فهو تهيئة وعبور ووصول إلى الأرض الموعودة، فالتهيئة عند الغربيين هو درب الصليب طيلة أربعين يوماً ثم غسل الأرجل، أما العبور فهو الصلب، وأما الوصول إلى الأرض الموعودة فهو القيامة حتى الوصول إلى حالة الاتحاد مع المسيح القائم من بين الأموات.

أما التهيئة عند الشرقيين فهي تتمثل بصلوات الغفران والرحمة طيلة أيام الأسبوع وصلوات خاصة لمريم العذراء أيام الجمعة ومن ثم الجناز إلى القيامة، ورغم عدم الفروقات بين الشرق والغرب فإن التمايز عند الشرقيين في جناز المسيح وهو يقام يوم الجمعة العظيمة الذي يحوي عملياً النياح الذي كان يقام في بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام على تموز – أداونيس قبل قيامته ويتجلّى ذلك بالزهور التي توضع في التابوت رغم أنها أصبحت هذه الأيام زهوراً ملونة، في حين كانت في الماضي عن قيامة تموز حصراً بزهور البنفسج.

سألتُ: ما هو سبب الخلاف في تعيين الفصح بين الشرقيين والغربيين.. لماذا لا يحتفلون في توقيت واحد؟!

قال فواز: السبب باعتقادي هو خلاف الحسابات بين الغربيين والشرقيين. الغربيون يعتمدون التقويم الباباوي الغريغوي في حساباتهم، لهيك ما بتمسّكوا في أن يكون فصحهم له علاقة بالفصح اليهودي.

قلت لهم: لحظة.. الموضوع معقّد بالنسبة إلي، أنا ما فهمت شو علاقة الشرقيين بالفصح اليهودي؟!

قال جورج: نحنا أرثوذكس شرقيين، بينما الكاثوليك غربيين.. أي يتبعون الفاتيكان والتقويم الغربي، وبما أن الشرقيين يقفون عند تناول المسيح العشاء الفصحي مع تلاميذه قبل مقتله، لذلك لازم يكون الفصح المسيحي الشرقي حكماً بعد الفصح اليهودي.

تدخّل مرة أخرى موسى بالحديث: أنا قرأت أساطير بلاد الشام والرافدين، فالمنطقة هنا هي منبع الكثير من الأساطير والديانات، وتبيّن لي أن الفصح المسيحي الذي يرتكز على موت وقيامة المسيح كفعل خلاص للبشر هو أقرب إلى موت وقيامة "تموز" منه إلى اليهودية. العبور الأدونيسي أقرب بكثير للمسيحية من العبور اليهودي، لأنه عبور من موت إلى حياة وهذا هو الأقرب للمسيحيين، لأنهم في لاهوتهم ينتقلون من موت الخطيئة إلى الحياة مع المسيح.

قال جورج: ذكرتني بقول بولس الرسول في رسالته إلى أهل رومية "أن نعلم أن إنساننا العتيق قد صلب معه لكي يتلف جسم الخطيئة حتى لا نعود نستعبد للخطيئة، لأن الذي مات قد تبرأ من الخطيئة، فإن كنا قد متنا مع المسيح أنّا سنحيا أيضاً معه إذ نعلم أن المسيح من بعد أن أقيم من بين الأموات لا يموت أيضاً، لا يسود عليه الموت من بعد، لأنه من حيث أنه مات فقد مات للخطيئة مرة، وأما من حيث أنه يحيا فيحيا لله فكذلك أنتم أيضاً احسبوا أنفسكم أمواتاً للخطيئة أحياء لله بربنا يسوع المسيح.. لأن أجرة الخطيئة هي الموت وموهبة الله هي الحياة الأبدية في المسيح يسوع ربنا" 6 / 10 / 23".

قبل الفجر اقترح فواز أن ننزل إلى الكنيسة لمشاهدة الطقوس الرمزية لقيامة المسيح.. وكان الاقتراح مناسباً تماماً لمشاعرنا التي راحت تتوس بين الحزن والاكتئاب، وبين التوق الشديد إلى الفرح والانعتاق.

إفطار رمضاني

بعد مضي عدة أشهر على الجمعة العظيمة، وتحت إلحاحي الشديد، زارني أحمد مرةً أخرى، لكنه أيضاً لم يوجّه لي دعوةً لزيارته، فهو ما برح يشعر بالحَرَج الشديد لهذا الأمر، دون أن يفصح عن الأسباب، ومن جهتي لم أُلمح له من قريب أو بعيد لهذا الأمر، على الرغم من توقي الشديد للتعرّف على أسرته، وطريقة عيشه.

ساقنا الحديث في أحد أيام رمضان عن أجواء الصيام وطقوسه، وحدثته عن تأثّري الشديد بأجواء رمضان في حيّ الميدان، خاصة حينما أرى اندفاع الناس قبل الإفطار بقليل، وهم يتسوّقون أنواعاً خاصة من الحلويات والأطعمة والمشروبات الرمضانية، مثل العرق سوس، والتمر هندي، والكل في عجلةٍ من أمره، فيما صوت تلاوة القرآن الكريم يتردّد صداه بخشوع في كل مكان.

قلت له: «هادا الطقس الجماعي.. يلمّ بوحّد البشر في لحظة واحدة.. وخاصة، بعد فترة الهدوء العميق التي تعمّ المدينة بعد آذان الإفطار يشعرني بالصفاء الروحي.. والسكينة».

أصغى إليّ باهتمام ودهشة ثم قال: «بصراحة أنا من فترة، عم بفكّر كيف بدّي أعزمك على بيتي، وأنت أول صديق بتمنى من كل قلبي يزورني.. لكن..

أراد أن يقول: «أنا خجلان من بيتنا»، لكنه صمتَ متلعثماً.

فسألت: «لكن شو؟!»

قال: «يعني.. أكيد إنت رح تتفهّم ظروفي.. ومش رح تحكم عليّ بناءً على وضعية بيتي..»

نظرت إليه بعتاب: «ليش عم تفكر بهالطريقة؟! البيوت بأصحابها.. ولو!».

مرّت لحظة صمت باردة.. قال أحمد بعدها: «هاي قصة طويلة بحكيلك ياها بعدين.. وهلأ حضّر حالك على فطور رمضاني عنّا، لكن متل ما بتعرف.. أنا ما بصوم..».

قفزت في مكاني فرحاً، وشددت على يديه: «صحيح أنا مسيحي، وابن خوري، لكن بدّي أصوم.. حتى أجرِّب طعم الصيام بشكل حقيقي».

قال: «شو رأيك بعد بكرا.. منطلع من المدرسة، ومنروح مباشرة على بيتنا.. اتفقنا؟!».

-اتفقنا.

قصر شمعليا

لن أنسى ما حييت ذاك اليوم الذي حفر كالوشم في داخلي. إذ رغم الصورة التي رسمها خيالي لهذا البيت، بعد التمهيدات الكثيرة التي ذكرها أحمد أمامي، إلاّ أن الواقع كان أغرب من الخيال.

دخلنا دهليز حارة مغلقة بأربع درجات عريضة، جدرانها مليئة بالملصقات الفلسطينية، وصور الشهداء، والشعارات، تتوسطها خارطة كبيرة لفلسطين ملوّنة، رُسمت على الجدار الخارجي لكنيس يهودي وكُتب تحتها بالخط العريض: «عائدون»، ثم انعطفنا داخل دهليز معتم، أفضى إلى فناء دار، هو بالحقيقة ليس فناءً بالمعنى المتعارف عليه في الفتحات السماوية للدور الدمشقية، وإنما فسحة ضيقة، هي أشبه بدهاليز غابة من براكيات الخشب والزينكو والإسمنت، متداخلة مع بعضها بفوضى عجيبة، وكما شرح لي أحمد: هذه التحويطات كانت هي الوسيلة الوحيدة لتوسّع كل عائلة الغرفة التي تشغلها.

تقدّم أحمد أمامي بانفعال شديد، لكي يدلّني على الطريق.. ووجدت نفسي غارقاً بين مجموعة من الأطفال، بأسمالهم البالية، بعضهم يلعب الكرة في حيّزٍ ضيقٍ جداً، وآخرون يتحلقون حول بعضهم يلعبون «الدُحَل».

على يمين المدخل كان هناك درج حجري، صعد إليه أحمد أمامي وقال لي منبّهاً: «لا تمسك بالدرابزين لإنو غير ثابت»، وبالفعل، كان

الدرابزين الحديدي مثبّتاً في الأعلى، فيما قائمته في الأسفل قد تخلّعت من مكانها.

صعدنا عدة درجات حجرية، ثم انعطفنا يساراً باتجاه بضع درجات أخرى خشبية مهترئة، أكلتها الرطوبة، فرحت أدوس عليها بحذرٍ شديد، وقلبي يهبط مع أصوات الصرير المتصاعد، وطقطقة الخشب الذي يصدر عن كل خطوةٍ أخطوها، وتشكّل لديّ إحساس بأنني سوف أهوي في أية لحظة، إلى أن وصلنا إلى رواق خشبي طويل، على يساره مجموعة غرف، وعلى يمينه درابزين صدئة تطلُّ على باحة الدار. نظرت من خلاله إلى فسحة الدار، فكاد يُغمى عليّ، لهذا المنظر المخيف الذي تعمّه الفوضى، فيما ملأت أنفي روائح الأبخرة، والأطعمة المتداخلة مع روائح الرطوبة المنبعثة من كل مكان.. في ذات الوقت الذي راحت تتداخل فيه أصوات بوابير الكيروسين مع صراخ النسوة وشتائمهن العصبية على أطفالهن.

حاولت في تلك اللحظات، أن أخفي قدر الإمكان انفعالاتي عن أحمد، لكي لا أسبّب له المزيد من الحَرَجْ. كانت غرفتهم تقع في منتصف الرواق. سبقني إليها، ونقر على باب الغرفة. فتحت أخته سميحة الباب، والمدهش أنها بدت غرفةً فسيحة، شديدة النظافة والإضاءة والترتيب، على الرغم من الأثاث المتواضع الذي تحتويه، ومباشرةً شعرت وكأنني انتقلت بشكلٍ سحري إلى عالم آخر، حميمي ودافئ.. وبسيط.

استقبلتني والدته بترحاب شديد. كانت تضع على رأسها نقاباً ناصع البياض، أضفى على سنواتها الخمسين وقاراً، وأبرز جمالها رغم آثار التعب الشديد الذي يلفُّ ملامحها، فيما وقفت شقيقته سميحة، ابنة الثلاثة عشر ربيعاً، بشعرها الأسود الطويل المنسدل على كتفيها، ترنو إليّ

بعينيها الواسعتين الخجولتين، فشعرت أن الألفة والبساطة تملأ كياني بفرحٍ دافق، وشفيف.

كانت أرضية الغرفة الخشبية مفروشة بالبسط، ووضعت في صدر الغرفة فرشات ضيقة، ووسائد نظيفة، وفي الزاوية الأخرى نُصب سرير حديدي، مغطّى بشرشف أبيض مطرّز يدوياً برسومات نباتية معرقة باللون الأزرق.

خلعت حذائي وجلست.. ثم طافت عيناي على جدران الغرفة، فلفت انتباهي صورة وحيدة بالأبيض والأسود معلّقة على الجدار، لرجل وسيم بلباسه العسكري. لاحظ أحمد اهتمامي بالصورة فقال: هذه صورة زوج أمي الذي استشهد قبل خروجهم من فلسطين بفترة قصيرة.. كان من الثوار مع الحاج أمين الحسيني.

بدا أحمد سعيداً جداً بحضوري، لكنه لم يتخلّص من ارتباكه تماماً، وفيما انشغلت والدته، وشقيقته بتحضير طعام الإفطار، راح يحدثني بفيضٍ لم أعهده من قبل، عن حياة وقصص جيرانهم في قصر شمعايا.

حدّثني عن جارهم أبو محمد الطبراني، الذي يسكن مع أولاده العشرة وزوجته في الغرفة المجاورة لهم، وحدّثني عن عمته (أم رشا) التي سافر أولادها إلى الخليج، فصاروا أغنياء، وتركوا لهم غرفتهم في قصر شمعايا، فأثارت حسد الجيران لأنه صار لديهم غرفتين، وحدثني عن ابنة عمته رشاء التي لوّنت عالمه الطفولي بأطياف قوس قزح الجميلة.. فكانت من حيث لا تدري عوناً له على تلمّس روعة الجمال والضياء من جهة، والشعور بوطأة الواقع وقسوته من جهة أخرى.

وساقنا الحديث إلى قصة حمود الأحدب، وجارتهم القابلة أم حسين التي تعالج الكبار والصغار بالأعشاب الطبية، وتبتكر المهن المتعدّدة

لأولادها.. وحدثني عن منامات جارتهم عيشة السلمان التي تخيف جاراتها..

وأفاض في الحديث عن جارتهم أم العبد، التي لا تتسع غرفتها الصغيرة لأولادها الكثر، مما يضطرها لأن تفرش لبعضهم تحت السرير الذي تنام عليه هي وزوجها وأطفالها الصغار، ومع ذلك كل سنة كانت تفرّخ طفلاً آخر، سرعان ما ينضم إلى سرب إخوته الذين يصعب التمييز بينهم لكثرتهم.

وحدّثني عن جارتهم فاطمة الحسنين، صديقة والدته الحميمة، المرأة القوية التي اندفعت بالرقص والأهازيج أمام الشباب، أثناء وداع أول مجموعة فدائية انطلقت من مدرسة «الأليانس» بالباصات باتجاه الجبهة، للقيام بعمليات جريئة خلف خطوط العدو بعد نكسة حزيران 1967 مباشرةً.

وحدثني عن جارهم أبو سعاد، الذي يسمونه 'أبو البنات'، لأن زوجته أنجبت له سبع بنات، دون أن يُرزق بصبي واحد، وعن جارتهم اليهودية «راشيل» وأخواتها الثلاث العوانس «مارسيل، وفردوس، واستير» اللواتي يقع بيتهن مقابل قصر شمعايا.. حيث كانت «راشيل» تفاجئهم أحياناً بأخذ حمام شمس «بالمايوه» على سطح دارها، دون اكتراث لعيونهم الطفولية التي تتلصص على جسدها الأبيض.

تشعبت أحاديثنا، وفاضت حول هذا العالم، المليء بالحكايات والتناقضات والألغاز..

بعد انكسار الحاجز - العقدة لدى أحمد أتاحت لي الزيارات المتتالية إلى قصر شمعايا، التعرّف أكثر فأكثر على أجواء، وحيوات لم أكن أظن، أو أعلم أنني في يوم من الأيام سوف أتعرف عليها بهذا العمق، وبهذه التفاصيل الإنسانية المدهشة في تنوّعها.. ومنذ ذلك

الحين لم يعد الفلسطيني – اللاجئ بالنسبة لي مجرّد شخص أحمل عنه تصورات هلامية، وأكنُّ له مشاعر تعاطف إنساني مجرّد، بل صار شخصاً من لحم ودم.. وقصص، وحكايات، ومصائر بشر، حيث شهدت بنفسي التحولات التي طرأت عليهم، فحوّلت بعضهم إلى شهداء، أو مشاريع شهداء.. أو أسرى أو منفيين.. أو مهاجرين في أصقاع الأرض.. ومن يومها لم تعد الصورة التي شكّلتها عنهم أحادية، أو مثالية، لأنني اكتشفت بأم عيني أنهم بشر مثلنا، يحملون معهم كل ما نحمل من تناقضات، وأهواء، ونوازع.. لهم أحلامهم.. وانكساراتهم.. وبينهم الصلب، القوي، المقاوم، وبينهم الضعيف، الانتهازي والمساوم.. بيد أن قضيتهم الاستثنائية – ربما – هي التي جعلت منهم رواية تراجيدية لم تكتمل فصولها بعد..

في ذلك المساء، بذلت أم أحمد، بحسّ الأم المرهف، الصادق، كل طاقتها بحبٍّ وكرمٍ وحميّة، وكأنها غير مصدّقة أنه صار لابنها أصدقاء مختلفين عن أصدقاء الحارة، وتريد له أن يرفع رأسه أمامهم، ويفتخر بما تصنع لأجله. لذلك حرصت على تحضير أكلات فلسطينية خاصة: المسخّن والمغربية بالدجاج.. والملوخية، والعكوب باللبن.. بالإضافة إلى المقبّلات الرمضانية المتعدّدة، فكانت المائدة عامرة بكرم الفقراء ونقائهم.

جلسنا حول طعام الإفطار، نستمع بخشوع إلى صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، يتلو آيات من القرآن الكريم، بانتظار أذان المغرب، وحضر والد أحمد الذي أضفى بهيبته بهاءً ساحراً على الجلسة، فرحت أصغي بكل جوارحي.. وأعبُّ من هذه اللحظات الروحية، الاستثنائية، وأمتلئ بشعور السكينة والسلام.

أثّرت فيّ شخصية والد أحمد كثيراً، فقد كان رجلاً هادئاً، دمثاً،

عذب الحديث، أقرب إلى المتصوفة الزاهدين بمتاع الدنيا، وكان لمّاحاً ساخراً، يلتقط مفارقات الحديث، ويعلّق عليها ضاحكاً، لكنه يحاذر دائماً ألاّ يجرح، أو يؤذي مشاعر الآخرين.

في ذاك اليوم فكّكت لي زيارتي لقصر شمعايا، الكثير من الألغاز والتساؤلات التي كانت تدور في رأسي حول عالم أحمد المتحفظ، لكنني بت أكثر تعاطفاً وتفهماً واحتراماً له.

الكشف.. والاكتشاف

بعد زيارتي الأولى لبيت أحمد لم يعد ثمة ما يحول دون تواصلي الدائم معه.. خارج حدود المدرسة.. حيث باتت أبواب الزيارات المتبادلة بيننا مفتوحة.. بل اتسعت لتشمل فواز، وبعض أصدقاء المدرسة، لكنه ظلّ متحفظاً تجاه موسى الذي لم يرغب من جهته أيضاً التواصل مع أحمد خارج حدود المدرسة، على الرغم من أنهما كانا يتفقان في كثير من المواقف الفكرية، أثناء النقاشات الحامية التي كنا نخوضها.

بعد فترة من الزمن اختفى موسى، وتجاوز غيابه عن المدرسة الحدود العادية. وبدأ الشك يساور أحمد وبقية الشلّة، خاصة وأن موسى كان يلمّح باستمرار إلى رغبته بالسفر إلى أوروبا، ويشكو أحياناً من التمييز في معاملتهم، والحظر الذي يُفرض عليهم، ومن جهة أخرى كان شديد التكتّم حول حياته الخاصة، على الرغم من انفتاحه في النقاش حول مواضيع ثقافية وفكرية عامة.

في أحد الأيام دخل موجّه المدرسة إلى الفصل، وبيده ظرف مختوم، وبعد أن استأذن المدرّس سأل: «هل يعرف أحدكم عنوان زميلكم موسى شقيفاتي؟!».

فوجئنا بأحمد يرفع يده، فقال له الموجّه: «سلّمنْ هادا الظرف، فيه إنذار أخير له بالفصل من المدرسة، إذا لم يحضر ويبرّر غيابه».

بعد خروجنا من المدرسة سألت أحمد بدهشة: «ليش إنتِ بتعرف بيت موسى؟!»

فهزّ برأسه: «بيته قريب منّا بالحارة.. ورغم كل إشي، لازم نطّمن على الزلمة، ليكون صاير معو شي قصة».

في اليوم الثاني جاء أحمد متوتّراً سألته: «شو صار معك، شفت موسى؟»

فردّ بانزعاج: «منيح يلي ما تورطت، لإني قبل ما أروح سألت جارنا أبو جاك بيّاع البيض عن بيته، فخبّرني إنو الحارة مخبوطة خبط برجال الأمن، لأنو صاحبك موسى هربان من البلد مع مجموعة من شباب الطائفة».

سألته: «كيف؟!»

فردّ بسخرية: «كيف.. والله ما بعرف.. بس هدول وراهم كتير ناس».

مرت فترة طويلة، لم نعد نذكر موسى، وخاصة أمام أحمد الذي كان يثور غاضباً إذا جاء ذكره، إلى أن وصلتني منه في يوم من الأيام رسالة، عنوانها في لندن، يتحدّث فيها عن اشتياقه الكبير لنا، وللبلد، ويبرّر بشكلٍ ما تصرّفه، بدافع رغبته العميقة في تحقيق طموحه بدراسة الإخراج السينمائي، ملمّحاً إلى أنه لن يخون مبادئه وأصدقاءه، وبلده الذي أحبّه وعاش فيه، ويحنُّ إليه كثيراً.

كانت هذه الرسالة هي الرسالة الوحيدة اليتيمة التي وصلت من موسى، بعدها انقطعت أخباره لفترةٍ طويلةٍ من الزمن.

صدمة!

كانت الغرفة العلوية التي حصلنا عليها بعد مغادرة عمتي أم رشا قصر شمعايا، تطلُّ على سطيحة بيت طبيب يهودي مشهور، عَمَدَ إلى رفع الجدار الفاصل بين بيته وقصر شمعايا عدة مداميك إضافية، لكي يحجب بيته عن أنظارنا، نحن سكانه الجدد، وعلى الرغم من ذلك ظلت غرفتنا تكشف أجزاءً من فناء غرف بيته العلوية، وسطحه، وكان يحلو لي أحياناً التلصّص على بنات الطبيب الثلاث الجميلات، وهن ينشرن الملاءات البيضاء، أو ألبستهن الداخلية غير مباليات لنظراتي التي ترصد حركاتهن، لا سيما حينما ينثنين لتناول الغسيل، فتنحسر أثوابهن القصيرة، وتظهر مفاتن سيقانهن البيضاء النضرة. كانت هذه المشاهدات تثير لديّ أخيلةً جنسية، واستيهامات غامضة، مغلّفة بالضباب وفضول الاكتشاف.. وكان يزعجني كثيراً تعالي بنات الطبيب اللواتي ينظرن إليّ شذراً، وكأنني أنتمي إلى كائنات أخرى مخيفة جاءت من كوكب آخر. على مرّ السنوات كن يتجاهلنني تجاهلاً تاماً، على الرغم من إحساسي الخفي أن فضولهن نحوي لم يكن أقلّ من فضولي نحوهن.

كانت كل واحدة منهن، في كل مرة، تتحرّك بكبرياء وجموح جيئةً وذهاباً دون مبالاة، ودون أية التفاتة.. أو نظرة ناحيتي رغم أن سهام نظراتي تأكلها، وأكثر ما كان يغيظني، أن الواحدة منهن كانت حينما تنهي عملها، ترمقني بنظرة خاطفة، وكأنها تريد أن تؤكد لي أنها غير آبهة

بتلصصاتي عليها، وعلى الرغم من شعوري بالحنق والحرَج في كل مرة، لم أكفّ عن الانجذاب نحو هذا الجمال المستعصي الذي يتحرّك أمامي بلا مبالاة.

هؤلاء الفتيات عشن - على عكس راشيل وأخواتها - حياة مسترخية، مطمئنة، رغيدة، بالاستناد إلى وضع والدهن المستقر مادياً واجتماعياً. فقد درسن في المدارس الخاصة بالطائفة، ثم دخلن إلى الجامعة وتخرجن منها. لم يُرهقهن في يومٍ من الأيام التفكير - كبنات الطائفة - بما سيدفعن للعريس المنتظر، لأن والدهن استطاع تجهيز كل واحدةٍ منهن بما يليق بها.. وهكذا تزوجن الواحدة تلو الأخرى من أفضل شباب الطائفة، الذين وجدوا فيهن كل ما يطمح له الشاب من جمال، ومال، وعلمٍ، ومكانة اجتماعية مستقرة.

كذلك عاش شقيقهن الوحيد سيمون حياة باذخة.. وكان الطريق أمامه معبّداً لدراسة الطب، والتقدّم في هذا المجال مستفيداً من سمعة والده المرموقة، لكن أحداث الـ 1967 التي عصفت بالمنطقة، ربما أثّرت على تفكيره، كما على غيره من أبناء الطائفة الذين راحوا يتطلعون إلى الخارج.. وعينهم على إسرائيل، التي بدت لهم قوة لا تُقهر، داعبت أحلامهم.. وربما أوهامهم على أنها الفردوس المفقود، الذي يمكن أن ينفتح أمامهم على حياة ذات آفاق عريضة! وبالتأكيد، كان هناك، في الزوايا المعتمة، من يغذي تلك الأوهام، ويدفع بشباب الطائفة نحو هذا المصير، ويسهّل لهم سُبل التسلّل غير الشرعي إلى خارج الحدود، وهكذا استطاع سيمون ابن الطبيب أن يختفي في يومٍ من الأيام، مع من كان يختفي من أبناء الطائفة اليهودية، ويصل إلى إسرائيل، ثم ينخرط في صفوف جيشها، ليعود بعد سنوات، بوصفه طيّاراً إسرائيلياً، يقود طائرته الحربية المعادية.. ويقصف قلب مدينته دمشق، التي عاش فيها طفولته،

ومطلع شبابه، ويوقع الدمار والحرائق، والقتلى والجرحى في صفوف المدنيين.. وتشاء الصدف أن تُصاب طائرته بصاروخ مضاد للطائرات، فتهوي محترقة، فيسارع إلى قذف نفسه بالمظلة، لينزل جريحاً في إحدى ضواحي دمشق، ويقع أسيراً.

بعد التحقيقات الأولية معه، عُرفت هويته، وأثناء معالجته في أحد المستشفيات العسكرية، استُدعي والده «الطبيب المشهور»، لمقابلة ابنه الذي عاد حاملاً معه الحقد والموت والدمار لبلده!

ربما لم يتوقع الطبيب، الذي اكتسب شهرته من مهارته أولاً، ومن معالجة الفقراء في أحياء دمشق الشعبية وضواحيها بأجور رمزية أحياناً، ومجّاناً أحياناً أخرى، أنه سيقف في يومٍ من الأيام مثل هذا الموقف، الذي كان له وقع الصدمة الشديدة عليه.. إلى درجة دفعته أن يبصق في وجه ابنه، ويغادر المكان مطأطئ الرأس.

من الصعب مقاربة، أو وصف تلك اللحظة التي التقت فيها عيونهما، والمشاعر الكثيفة المتناقضة التي رافقتها..

ماذا دار في خلد الاثنين في تلك اللحظة؟! وهل ما أُشيع لاحقاً عن موقف الأب كان حقيقياً؟! أم هو مجرد تمثيلية خارجية، لكي يتقي - ربما- تداعيات لم يرغب بها في تلك اللحظة التي لا يُحسد عليها؟! وكيف واجه الابن الموقف؟! وهل جرى حوار بينهما أساساً؟! أم اكتفيا بتلك النظرة الغائمة المشحونة بالتوترات؟!

أسئلة كثيرة طُرحت، وتُطرح.. وتأويلات لا حصر لها، يحتملها الموقف، لكن ما من أحد دخل إلى قلبيهما وعقليهما.. ومشاعرهما.. وعرف ما كان يجري داخل هذين الكائنين اللذين اجتمعا على هذا الموقف الملتبس في تلك اللحظة الاستثنائية!

أبي.. وأمي.. وزوجها الشهيد

هاجرت والدتي من فلسطين، أرملةً لشهيد، معها طفلة في الثالثة من عمرها، وطفل رضيع عمره بضعة أشهر، حيث استشهد زوجها في معركة سقوط طيرة – حيفا، بعد فترة وجيزة على سقوط المدينة.

كانت أرملة جميلة في العشرين من عمرها، استقرّت مع عائلتها في جامع سوق ساروجة بدمشق، وفي تلك الفترة تقدّم لخطبتها أكثر من شخص، لكن شرطها الأساسي كان أن يحتضن من يريد الزواج بها طفليها، ولهذا رفضت من تشكّكت بقدرته على تحمّل ولديها، إلى أن تقدّم والدي لطلب يدها، وعلى الرغم من أنه يكبرها بأكثر من عشرين عاماً، فقد وافقت على الارتباط به، دون تردّد، لسببٍ بسيط هو: تآلف ابنها الصغير معه منذ اللحظة الأولى، إذ تقدّم الصغير نحوه، وركن هادئاً في حضنه إلى أن غفا بين يديه.

وبما أنها امرأة تتبع حدسها، وتصغي إلى ما يمليه عليها، فقد كان لديها اعتقاد راسخ، أن طفلها محظوظ، وله مستقبل باهر، لأنه وُلد كما تقول «ببرقع»(*). بعد ولادته احتفظت بذاك «البرقع»، بعد تمليحه وتجفيفه، وتغليفه على شكل «تعويذة»، تحمي طفلها من الحسّاد، وتجلب له الحظ، وتعمي عنه أبصار الأعداء.. وحينما هاجرت كانت تلك التعويذة

(*) البرقع: هو كيس لحمي، يحيط بالجنين في رحم أمه، وهو حالة نادرة الحدوث، وفي المعتقد الشعبي هذا المولود صاحب حظ.

معلّقة بثياب طفلها.. لذلك حينما استقر في حضن والدي، عندما تقدّم إلى خطبتها، وغفا بين يديه.. اعتبرت ذلك بمثابة إشارة سماوية لها لأن تقبل بهذا الرجل دون تردّد.

هذه الحادثة العفوية، عنت لها الكثير، وبالفعل كان حدسها في مكانه، حيث أثبتت الأيام حنوّ والدي الشديد عليهما، ورأفته بهما.

كان والدي زاهداً بمتاع الدنيا، يكتفي بأقل القليل، بينما والدتي على النقيض منه امرأة عملية تضجُّ بالحيوية والحركة، وتطمح باستمرار إلى تغيير حياتها، وحياة الأسرة نحو الأفضل، رافضةً الاستسلام لقسوة الظروف، وصعوباتها. حملت والدتي بتوأم بعد الزواج مباشرة، لكنها فقدتهما وهما رضيعين الواحد تلو الآخر، مما أورثها حزناً شديداً، عوضته بالحمل بي في مطلع الخمسينيات، وبعد تنقل الأسرة في عدة غرف متواضعة بالأجرة استقر بها المقام في غرفة من غرف «قصر شمعايا»، حيث تنامت العائلة شيئاً فشيئاً.

تصادمَ طموح والدتي، واندفاعها باتجاه الحياة مع زهد والدي الشديد، وعلى الرغم من الاحترام المتبادل بينهما، إلا أن هذا التناقض بين طبعيهما كاد يعصف باستقرار الأسرة أكثر من مرة، وظلّ يتحكّم بمسارها، ويفرض عليها نوساناً دائماً، حدّ من طموحات والدتي، ووقف حائلاً دون تحقيق أحلامها.

بعد أن فقدت الأمل بتحريض والدي على الاجتهاد، والبحث من أجل تحسين عمله، ودخله المادي، صارت تراهن علينا، نحن أولادها، وكانت صدمتها الأولى مع أخي غير الشقيق الذي أغرقته هي وأخوالي بالدلال، فشبّ عديم المسؤولية، ولأن والدي كان رؤوفاً به، وليّناً في تعامله معه حرصاً منه على مشاعر أمي، وكي لا يُقال أنه يميّز بينه وبين أولاده، فقد بات أخي بلا مرجعية تحاسبه وتقوّم سلوكه، الأمر الذي دفعه إلى

الانحراف، فأصبح عقدة الأسرة، ومصدر التوتر الدائم فيها. حاولت أمي بكل طاقتها أن يكمل تعليمه، فأبى، كان يهرب من المدرسة باستمرار.. وحينما شدّدوا عليه الحصار صار يهرب من البيت. حينئذٍ يستنفر أخوالي لأنهم يعتبرونه من مسؤوليتهم، ولأن لكلٍ منهم أسلوبه، ورأيه في الطريقة المثلى لتربيته، وتقويم سلوكه، ضاع الصبي في متاهة الاجتهادات بين هذا وذاك. كان أحد أخوالي حينما يمسك به، يشبعه ضرباً وركلاً، ثم يقيّده من قدميه، ويديه، ويحبسه ظناً منه أنه سوف يردعه بهذه الطريقة، وكان والدي يتدخّل بالنصيحة لوالدتي وأشقائها: «هذا الأسلوب خاطئ.. جرّبوا اللين والحنان مع الصبي..إلخ» لكنه لم يكن حازماً في فرض رأيه.. وهكذا عاش أخي حياته شخصاً عنيفاً، أدمن فيما بعد السكر والمخدرات. صحيح أن أمي بعد صراعها المرير معه نجحت في تعليمه مهنة يقتات منها، لكنه كان يصرف أمواله على المومسات، والملاهي الليلية، والملذات الغرائزية.. متنقلاً من سجنٍ إلى آخر، بعد كل مشكلة يقع بها، غير آبه بأية قوانين، أو شرائع، أو قيم.. وعلى الرغم من كل ذلك ظلّ والدي الرجل الوحيد في حياته الذي يخجل أمامه، ويؤثّر عليه بالكلمة الطيبة، والنظرة المتسامحة التي تهذّب من انفلاته.. وتعيده إلى إنسانيته.

أختي غير الشقيقة كانت على عكس أخي تماماً، مجتهدة ونشيطة تحب المدرسة وتنجح كل سنة بتفوّق، وحينما حصلت على الابتدائية، وبدأت ملامح الأنوثة تظهر عليها خافت عليها والدتي من نظرات الآخرين، وتحرشاتهم الجنسية، ومع ضغوط البيئة المحافظة والفقر الشديد قالت لها: «ابقي في البيت لكي تساعديني في تربية أختك.. حتى يأتي نصيبك وتتستري..».

بكت أختي بكاءً مريراً، وتوسّلت إلى أمي بحرارة أن تسمح لها

بإكمال تعليمها، لكنها لم تجد آذاناً صاغية.. وكان موقف والدي أيضاً سلبياً، بل موافقاً على رأي أمي «البنت تحتاج إلى السترة..». وهكذا تزوجت أختي زواجاً تقليدياً وهي في السادسة عشرة من عمرها، لتعيش حياتها بلا طعم أو رائحة.

بعد أن فقدت أمي رهانها على أبي، وأخي غير الشقيق، ركّزت أمالها عليّ، وكانت في كل مناسبة تشيع أن أحمد مجتهد في دراسته، وأخلاقه جيدة، وهو الوحيد الذي سينقذ العائلة. كانت تراهن على دخولي الجامعة، والتخرّج منها، ولم يخطر في بالها أن لي موالٌ آخر في رأسي، يجعلني أسخر من أحلامها الصغيرة، فقد كنت مشدوداً، لا من أجل تغيير واقع أسرتي الصغيرة، بل من أجل تغيير العالم، ومن أين لأمي البسيطة أن تدرك طبيعة تلك المسارات المعقدة التي فرضت نفسها عليّ، فغيّرت مجرى حياتي.

من جهته عاش والدي في فلسطين، ما قبل النكبة، حياة مسترخية، دون أية مسؤوليات تُذكر، وتقدّم لخطبة أكثر من فتاة، لكنه في كل مرّة، كان يتردّد في الزواج، ويفسخ الخطبة، السبب في ذلك صدمة عنيفة عاشها في مطلع شبابه، حين تعرّف إلى فتاة التقى بها في بيت عمتي. أُعجب بها، وتقدّم لخطبتها، وفوجئ بعد فترة باعترافها له بأنها كانت على علاقة مع آخر، وهي حامل منه.. ثم هجمت على قدميه تقبّلهما، وتستغيث به أن يتزوج بها، ويستر عليها، لأن الآخر تخلّى عنها، بعد أن فعل ما فعل.

صدمت جرأة اعترافها والدي بشدة، بيد أنها كانت تراهن من جهة، على طيبة وسماحة خلقه.. ومن جهة أخرى لمّحتْ له أنها ستدّعي بأنه والد جنينها، ومن غرّر بها.

وضعته هذه الحادثة في موضعٍ شديد الحرج، فهو من جهة رجل

مسالم، لا يحب الفضائح، وكان من الممكن أن يتكتّم على الموضوع في حال راحت في سبيلها، وفي الوقت ذاته عاش اضطراباً داخلياً مريراً، لأنه لم يهضم فكرة الارتباط بامرأة زانية، ويتحمّل مسؤولية طفلٍ ليس من صلبه.

حينما سُدّت السبل أمامهما، اشترط عليها أن يتزوج بها لفترة قصيرة، دون أن يدخل بها، ثم يطلّقها لكي تذهب هي، وجنينها في حال سبيلهما، وهكذا كان. على إثر ذلك غادر مدينته «صفد»، واستقر في «طبرية» لكي يبتعد عن كل ما يذكّره بتلك الحادثة، غير أنه لم يتخلّص من آثارها، إذ ما برحت تنهشه الشكوك كلما تقدّم إلى خطبة فتاة، ثم لا يلبث أن ينكص عن الزواج.. وهكذا تقدّم به العمر، وبات على أعتاب الخمسين دون أن ينجح في تكوين عائلة، يستظل في فيئها.. إلى أن شاهد تلك الأرملة الجميلة وطفليها، فتفجّرت ينابيع الأبوّة الكامنة في داخله، وانفتح قلبه، فاستقرّ رأيه النهائي: هذه عائلتي.

وكم كنت أُعجب لرحابة صدر والدي، وتسامحه.. فهو لم يعترض، أو ينزعج من والدتي، التي علّقت صورة زوجها الشهيد في صدر الغرفة.. وكل ما فعله أنه هزّ برأسه باسماً.. وغضّ النظر عن الموضوع.. وهكذا تعايش أبي مع أمي.. وزوجها الشهيد.

مفارقات.. فاتنة!

غريب هذا الـ«قصر شمعايا»، لمجرد أن أخرج منه، وأمشي بضعة أمتار، أجد نفسي في عالم آخر، شديد الثراء والتنوّع والاختلاف. كنت أغوص في داخلي، أحاول التعرّف على ذاتي. أتساءل: من أنا؟! وما الذي يجمعني مع هؤلاء؟!

كانت أمي ترسلني أحياناً إلى معمل السكاكر، الذي يقع بالقرب من سوق «البزورية»، لأجلب لها ما ينقصها من أوراق لفّ السكاكر. كان هذا الطلب يزعجني كثيراً، لأن صاحب المعمل سوف يحقّق معي: لماذا نَقَّصَ الورق الذي أرسلناه لكم؟! كان يغضبني هذا السؤال الذي ينمُّ عن بخل، واستغلال أصحاب المعامل، فالورق يتمزّق أحياناً أثناء اللّف أو القص، وأحياناً أخرى تكون الكمية التي أرسلها صاحب المعمل أساساً غير كافية، ولأنه لا ينتظر سماع جوابي، ويمطرني باللوم والتأنيب، كنت أرتبك، وأكتم غضبي العارم وسخطي، وأشعر بالبؤس الفظيع الذي يحيط بحياتنا. كنت أكره اللحظة التي تطلب مني أمي فيها أن أذهب إلى معمل السكاكر.. لكن، لا مفرّ من ذلك.. في كل مرة، في طريقي إلى هناك، كنت أشرد وأنا أمشي متثاقلاً، تخطفني المشاهد المتنوّعة التي تصادفني، وتخرجني من حالتي، وتذهب بي بعيداً.. بعيداً.. كأن يصادفني مثلاً مشهداً فاتن بجماله لصبايا يهوديات، وهن في ثياب السهرة يضعن الشالات الملونة على أكتافهن العارية، ويتنقلن في الحارة

بخفر كالزرافات مجموعات.. مجموعات مشياً على الأقدام حتى يصلن إلى بيوتهن.. كان هذا المشهد مألوفاً، وعادياً، ومقبولاً، ولا يشكّل حساسية لدى جيرانهم المسلمين، الذين يقرّون ضمناً بتمايزهم واختلافهم.. وهذا ينسحب أيضاً على النساء المسيحيات اللواتي يتمايزن بأزيائهن السافرة، دون أن يشكّل ذلك حرجاً لأحد.. فيما بعد، صرت أربط الأشياء ببعضها، وأحلّلها، حيث طغت في الستينيات موجة من التحرّر أيضاً لدى النساء المسلمات اللواتي نزعن الحجاب على نطاق واسع، وبالتالي لم يعد بمقدور أحد أن يميّز بسهولة الانتماء الديني لهذه، أو تلك من خلال أزيائها..

آنذاك، خضت لأول مرة صراعاً حاداً مع والدي، من أجل شقيقتي سميحة التي رفضت ارتداء الحجاب، فيما أصرّ والدي أن ترتديه، على الرغم من كل تسامحه، الأمر الذي خلق مشكلة عويصة داخل الأسرة. دافعت آنذاك بشراسة عن شقيقتي التي أصرّت على موقفها، فكان لها ما أرادت، رغم تعنت والدي الشديد، الذي استسلم في نهاية المطاف للأمر الواقع على مضض.

بعد أن تعرفت على جورج، وموسى، وأثناء النقاشات الحامية التي كنا نخوضها، كنت أسألهما عن معنى ودلالات طقوس الجنازات.. أو مظاهر الاحتفالات الدينية التي أشاهدها في الكيلو متر مربع الذي يحيط بقصر شمعايا وحارة اليهود.. وكان الحديث يجرنا إلى أسباب وخلفيات هذا التوزّع الذي قسّم أحياء دمشق القديمة على هذا النحو، حيث يقع الحي اليهودي على تخوم الحي المسيحي من جهة.. وعلى تخوم الأحياء الإسلامية التي تتقسم بدورها إلى أحياء سنية وأخرى شيعية.. حيث تتعايش هذه الأديان والطوائف بانسجام وتآلف، على الرغم من بعض الغيوم التي شابت هذا النسيج في مراحل تاريخية معينة، لكأن

المدينة العربية القديمة، مصمّمة بالأصل على ضوء هذا التعايش الأصيل والمتسامح بين الديانات والطوائف..

كان النقاش يحتدم أحياناً بيننا، وينزعج موسى كثيراً، حينما يشعر أنه موضع اتهام بشكلٍ أو بآخر.. كان يردّ: نحن لسنا مسؤولين عن أطماع الحركة الصهيونية، التي تلاقت مصالحها مع مصالح الغرب الاستعماري الذي صدّر «المسألة اليهودية» إلى هذه المنطقة مع قيام دولة «إسرائيل» التي خرّبت النسيج الإنساني الجميل في هذه المنطقة، القائم على التنوّع، والتجاور، والانفتاح..

وكان يضيف بانفعال: عودوا إلى التاريخ، تجدون أننا نحن اليهود العرب جزء لا يتجزأ من هذا النسيج.. وهذا يفسّر لكم كيف نعمل في كل مناحي الحياة الاقتصادية والمهنية.. في تجارة الأقمشة والملابس.. والصوف، والصاغة، والمهن اليدوية التقليدية كالحفر على النحاس والصدفيات والموزاييك، جنباً إلى جنب مع المسلمين والمسيحيين. نحن لم نشعر في يومٍ من الأيام أننا موضع شك، إلا بعد أن قامت إسرائيل، وهذا ليس ذنبنا.

حينما يتوتر الجو بيننا، كنا نغيّر مجرى الحديث، فأسأل موسى، أو جورج عن طقوس الجنازات أو الأفراح اليهودية، أو المسيحية التي أشاهدها في الطريق إذ كثيراً ما تصادفني جنازة يهودية بكل طقوسها المهيبة، حيث الحاخامات يرتلون المزامير، فيما يحمل البعض الصولجانات.. وآخرون السماط الأسود من الجهات الأربع، ويتوسطهم النعش.. وكنت أقف مذهولاً، حينما نخرج من المدرسة في حي العازارية القريب من باب توما، وتصادفنا جنازة مسيحية بنعش مفتوح، حينما يكون الراحل شاباً أو شابة في مقتبل العمر. كنا نقف بصمت وحزن لنشاهد الجنازة التي ترافقها فرقة موسيقية كشفية بالطبول والأبواق، وهي تعزف

اللحن الجنائزي الحزين، فيما يسير خلف الموكب ببطء شديد رجال الكهنوت وحاملوا الأكاليل والصلبان.. كنت في تلك اللحظات أصارع نفسي، لكي ألقي بنظرة سريعة خاطفة إلى الشاب، أو الفتاة المسجّاة بسلام داخل تابوتها، بلباسها العرائسي الأبيض، وهي تحتضن باقة زهور بنفسجية، مودّعة هذا العالم الظالم، الذي لم يُتح لها فرصة التمتع بشبابها..

هذه المشاهد والطقوس كانت تثير في نفسي الكثير من الغموض والفضول، وتشعرني برهبة الموت الذي يلفّ كياني ويسيطر عليّ بقوة، مع أنني – أقول لجورج – من الغريب أنني لا أشعر بذات المشاعر في طقوس الجنازات الإسلامية، ربما لأنها أبسط وأقل تعقيداً.. وأضيف: عندنا إكرام الميت دفنه بأسرع ما يمكن..

هذا الأمر كان يدفعنا إلى حوارٍ ساخن حول: معنى الوجود.. وتعدد الأديان.. واختلاف الطقوس.. وتقاطعات البشر واختلافاتهم.. وأسباب توحّدهم وتنافرهم.. وأين تكمن الحقيقة.. إذا كان الموت واحداً.. من هو على صواب ومن هو على خطأ؟!

عاشوراء.. والقساطلية!

كان لجيراننا الشيعة في حي الأمين، والقساطلية مدارسهم، وجوامعهم، وأنديتهم الرياضية الخاصة بهم، لكنها لم تكن مغلقة تماماً أمام الآخرين، إذ كثيراً ما كنت أذهب أنا وأصدقائي من قصر شمعايا إلى نادٍ هناك، لكي نلعب كرة السلّة، أو كرة الطاولة، بيد أننا لم نكن نشعر بالارتياح الكافي هناك، كما نشعر حينما نذهب إلى مدرسة «الأليانس»، حيث يقع مقرّ الفرقة الكشفية (38)، التي تأسست ليمارس أبناء اللاجئين نشاطهم الكشفي، والرياضي من خلالها.

سبب هذا الشعور هو ربما أبعد، وأعمق من مسألة الاختلافات الدينية، أو المذهبية التي تشعرنا بالتمايز عن جيراننا اليهود أو المسيحيين، لأنه ينسحب أيضاً على مشاعرنا تجاه جيراننا من المسلمين السنة والشيعة في الأحياء المجاورة، وإن يكن بنسبة أقل.

هذا الإحساس العميق بالغربة، يعود بالتأكيد، لإحساسنا بأننا مجموعة بشرية أُقتلعت من أرضها بالقوة، وتعيش بشكلٍ طارئ ومؤقت في تربة الآخرين، لا سيما، وأن هذا الإحساس كانت تغذيه بشكلٍ غير مباشر نظرة الآخرين لنا، التي يشوبها التعاطف مع شيء من الاستعلاء الخفي، الذي يطفو إلى السطح أحياناً أثناء الاحتكاك معهم، ربما بسبب بؤس أوضاعنا كلاجئين، أو شقاوة طفولتنا، أو ربما بسبب حضور أمهاتنا القوي في حياتنا العامة، الذي فرضته خصوصية ظروفنا، الأمر الذي لم

يكن مألوفاً في المجتمع آنذاك. هذه النظرة السلبية الخفية تجاهنا، اختلفت كثيراً بعد بروز ظاهرة المقاومة التي أعادت الاعتبار لنا، ليس بوصفنا مجموعة من اللاجئين فحسب، بل أيضاً أصحاب قضية وطنية ندافع عنها.

تحوّلت الفرقة الكشفية «38» في مدرسة الأليانس في منتصف ستينيات القرن المنصرم إلى بؤرة نشطة لاستقطاب شباب اللاجئين وفتيانهم، لا سيما وأن مخيماً من مخيماتهم نما على أطراف مدرسة الأليانس في مطلع الخمسينيات سُمِّي بـ«الشوادر»، ثم ما لبثت خيامه أن تحوّلت إلى بيوت من اللبن والطين، والأزقة العشوائية المكتظة. لم يعش هذا المخيم طويلاً، لأن الدولة وزّعت سكانه في مطلع الستينيات على المخيمات الأخرى، وشيئاً فشيئاً تهدمت تلك البيوت الطينية البائسة، وظلت بقاياها - لفترة من الزمن - مجرد خرائب وجدنا فيها نحن أطفال اللاجئين في حارة اليهود ملاذاً لألعابنا وشقاوتنا.. كنا مثلاً نذهب إلى تلك الخرائب، ويحلو لنا أن نتبارى في القفز من فوق بعض الجدران، أو التسلية بهدم ما تبقى منها.

كانت الفرقة الكشفية «38» تنظم الكثير من النشاطات الرياضية والكشفية التي تشارك فيها كل مدارس «الأونروا» في ملعب مدرسة الأليانس، كأن نبني أحياناً أبراجاً وجسوراً من العصي والحبال الغليظة، ونتدرب على تسلّقها، أو نقوم برحلات مسير شاقة إلى الضواحي المجاورة. كان الدافع الخفي وراء هذه النشاطات أبعد من المظهر الخارجي لها.. كان النواة الأولى التي زرعت فينا بذوز الوعي، والانتماء لقضيتنا، ومن ثم أهّلت كادراً قيادياً من الشباب الفلسطيني، لعب فيما بعد، دوراً مهماً في إطلاق شرارة المقاومة.

كنت أستغرب مثلاً في تلك المرحلة كيف تهتم والدتي، وجاراتنا في

قصر شمعايا، وكلهن مسلمات سنّيات بمناسبة يوم «عاشوراء»، فقبل عدة أيام من المناسبة كن يحضرن أنفسهن، ويتفقن مع بعضهن البعض، لكي نذهب جميعاً إلى مقام السيدة «زينب»، حيث كنا نجلس هناك تحت أشجار الزيتون، التي كانت آنذاك بساتين فسيحة تحيط بالمقام في البلدة الصغيرة المتواضعة.

لم يكن هذا الطقس السنوي، الذي تكثر فيه النذور والذبائح يقتصر على الشيعة وحدهم، وأذكر كيف كانت والدتي تربط شريطة خضراء على قضبان مقام السيدة «زينب»، وهي تدعو بخشوع أن تشفع لنا السيدة زينب أمام الله ورسوله، لكي يغفر لنا ذنوبنا، ويرزقنا، ويجنّبنا المرض والخوف والأحزان..

كنا نشارك في كل طقوس «عاشوراء»، باستثناء عمليات اللطم على الصدور، والأكتاف التي يقوم بها شباب أشداء، وهم يطوفون في محيط المقام، يضربون أكتافهم العارية بجنازير حديدية، حزناً على ذلك اليوم الذي راح ضحيته «الحسين»، وعدد من آل البيت. كان المشهد بالنسبة لنا مثيراً وغرائبياً، وغالباً ما كنا نشاهد شباباً من حي الأمين والقساطلية من الشيعة، ممّن نعرف بعضهم، وهم على رأس الموكب، يلطمون صدورهم العارية بانفعال وقوة، فتزيد رؤيتهم في نفوسنا الألغاز ألغازاً، في طفولتنا التي جُبلت على مثل هذا التنوّع الغني بطقوسه المتعددة.

أبو محمد الطبراني

في واحدة من زياراتي لأحمد في قصر شمعايا، وبينما نحن مسترسلان في الحديث، سمعنا صوت صراخ، وجَلَبة قوية آتية من الغرفة المجاورة، ثم تصاعد صوت الصراخ والبكاء، فركضنا نستجلي الأمر، وإذ بجارهم أبو محمد الطبراني، في نوبةٍ من نوبات غضبه الشديدة، راح يلقي بأدوات عمله، والبضاعة التي يشتغل بها إلى أرض الدار، بينما زوجته الصبورة – المحبّة، تحاول تهدئة خواطره دون جدوى.

ركض أولاده للملمة بقايا الأشياء المتناثرة هنا وهناك، حاولت أنا وأحمد تهدئته، وانتهزت زوجته الفرصة، فدعتنا إلى دخول غرفتهم. كان أبو محمد الذي يزن أكثر من مائة كيلو غرام يتنفّس بصعوبة.. وبعد أن هدأ قليلاً، غمزت زوجته ابنتها لكي تحضّر الشاي، ثم شيئاً فشيئاً راح يحدّثنا عن سبب غضبه، ويستعيد بحرقة أيامه الماضية، وما آل إليه وضعه الآن.

كان أبو محمد قبل النكبة، يعمل في بلدته الأصلية «طبرية»، صياداً في بحيرتها الزرقاء، وفي كل يوم يبحر بزورقه مع الفجر في عمق البحيرة، ليصطاد السمك، حرّاً، طليقاً، متوحّداً مع الطبيعة، يستنشق الهواء النقي، ويمتلئ بروعة الجمال الذي يحيط به.

لقد أفاض في حديثه عن روعة تلك الأيام.. حالماً بالعودة يوماً ما، إلى تلك البقعة التي يعتبرها قطعة من جنة الله على أرضه.

يجيد أبو محمد الطبراني اللغة الإنكليزية، التي تعلّمها من الاحتكاك مع الجنود الإنكليز، لكنه يكره بريطانيا، ويعتبرها المسؤولة عن محنة الفلسطينيين، لأنها تآمرت مع اليهود على تسهيل هجرتهم، وتوطينهم في فلسطين.. وفي الوقت ذاته يوجّه انتقادات لاذعة للحكّام والملوك العرب، الذين باعوا برأيه فلسطين لليهود والإنكليز.. وفي كل مرة نلتقي معه كان يكرّر الحديث نفسه، منوّهاً إلى أن «البلشفيك» قد حذّروا العرب بشكلٍ مبكّر إلى المؤامرة التي تُحاك ضدهم، لكنهم لم يأخذوا بكلامهم. عندئذ يستفزه أحمد معلّقاً: «بس جماعتك البلشفيك وافقوا على تقسيم فلسطين».

يصمت أبو محمد، ثم يطرق برأسه.. وبحزنٍ يضيف: الصراحة العالم كله تآمر علينا.

اضطُر أبو محمد الطبراني بعد اللجوء، إلى تعلم مهنة «الماكنجي»، لكي يعيل أسرته المتنامية باستمرار. كان يضع «ماكينة» لدرز وجوه الأحذية في زاوية الغرفة التي يعيشون فيها، إلى جانب طاولة خشبية صغيرة واطئة، يستخدمها في عمليات القص واللصق والتطبيق، وكانت روائح الجلد، والمواد اللاصقة تفوح دوماً في غرفتهم، وتسبّب أضراراً لأطفاله.

أحبَّ أبو محمد دائماً سماع «أم كلثوم»، وكان يدندن معها رباعيات الخيام، وهو يشرب الشاي الثقيل ويدخن، منهمكاً خلف طاولته الخشبية، يداعب وجوه الأحذية، التي تشبه كائنات صغيرة، تمدُّ ألسنتها في وجهه، وكأنها تسخر منه، مذكّرة إيّاه بالتحوّل القسري الذي طرأ على حياته. حينئذٍ كانت الدنيا تضيق في وجهه، فيشتعل غضباً، ويبدأ بتعنيف زوجته، والصراخ في وجه أولاده، وأكثر من مرة بلغ به الغضب درجةً، دفعته إلى جمع الجلد، وأدوات الشغل وإلقائها من غرفته العلوية إلى أرض الدار، لأنه لم يهضم بأي حال من الأحوال، هذا التحوّل القسري الذي فُرض

على حياته، فحوّله من صيّاد سمك حرٍّ يغزو البحيرة الزرقاء كل يوم، ويتوحّد معها، إلى مجرّد «ماكنجي»، أسير روائح الجلد والقص واللصق..

لقد كان معنى الوطن بالنسبة له، بكل بساطة ذاكرة طفولته وشبابه، التي قضاها صيّاداً طليقاً في بحيرة أحلامه «أجمل بقعة على وجه الأرض»، وها هو اليوم يجد نفسه مدمّر الذاكرة، بسبب الاختراق الذي انتهك مساحة حريته، وهشّم روحه.

تخرّجت ابنته الكبيرة «نهلة»، بعد عدة سنوات من مدرسة التمريض، وسافرت إلى السعودية، ولحقت بها شقيقتها «لطيفة»، التي تخرّجت بدورها من مدرسة المعلمات، بينما درس ابنه الكبير «محمد» في المعهد المهني الخاص باللاجئين الـ «V. T. C» وتخرّج منه، وبعد هزيمة الـ67، ضاقت الدنيا في وجه الابن، فحمل حقيبته على ظهره، على طريقة «الكشّافة»، وسافر «أوتوستوب» إلى تركيا، ثم إلى أوروبا، ووصل أخيراً إلى العاصمة الدانمركية «كوبنهاغن» التي اختارها مكاناً لهجرته الدائمة، وهناك تزوّج من فتاة دانماركية، وأسّس أسرةً له وعاش بقية حياته.

التحق ثلاثة من أولاد (أبو محمد)، بصفوف المقاومة الفلسطينية، وبعد فترة سقط ابنه عوض شهيداً، وجُرح عبد الحميد جرحاً بليغاً، نجا منه بأعجوبة، وعلى إثر ذلك سافر عند شقيقه لاستكمال العلاج، ولم يعد، ثم لحق بهما أخيهما الثالث فتحي، فطاب له المقام هناك ولم يعد، وهكذا انفتحت أبواب الهجرة إلى الدانمارك، أمام بقية أفراد العائلة، ومن ثم مارس الأبناء ضغطاً شديداً على أبيهم، كي يلحق بهم مع أمهم، إلاّ أنه رفض الفكرة رفضاً قاطعاً بالقول: «لن أغادر هذا المكان إلا في حالتين: إمّا في العودة إلى «طبرية» أو محمولاً إلى «القبر».. ولم يمهله الزمن كثيراً، حيث توقف قلبه عن الخفقان، قبل أن تتحقّق أمنيته في الاغتسال بمياه بحيرته الزرقاء.. الدافئة.

خصوبة

غالباً ما كنت أصادفها واقفةً في مطلع الدرج، كلما زرت قصر شمعايا. كانت امرأة بسيطة، سمراء، جسمها متهدل قليلاً، ربما بسبب كثرة الإنجاب، وفي كل مرة كانت ترحّب بي بحرارة من ينظر إلى الآخر نظرةً تشعره أنه مختلف، وكانت تداري خجلها من حالة أولادها الكثر المزرية، الذين ينتشرون في دهاليز الدار، وعلى أطراف الدرج الخشبي المهلهل، بضحكة مجلجلة وكأنها تقول: «ماذا نفعل.. هم كل ما تبقى لنا؟!».

كان من المدهش بالنسبة لي، أن لا أرى «أم العبد»، إلاّ وهي منتفخة البطن، ولا تكاد تَلِدُ، حتى أسمع من جديد، من أم أحمد بتندّر: «أم العبد حبلى من جديد».

كنت أسأل أم أحمد بدهشة: «كيف هدول عايشين بهاي الغرفة الصغيرة فوق بعضهم البعض» كانت تضحك وتقول: «ربك رحيم.. بتفرش أم العبد إلهم تحت التخت، وبنام بعضهم في كتبية الفراش» وحينما أنظر في عيني أحمد مستفهماً نفقع ضحكةً صاخبة، لأنه يفهم قصدي من تلك النظرة ويعلّق: «لديهم مطبخ صغير ملحق بغرفتهم.. يستحمون به، وهو الفسحة الوحيدة لأم العبد وزوجها للنشاط والتناسل..».

وبين التعليقات، والمزاح كانت أم أحمد تغرق بالضحك وتعلّق: «هذاك اليوم المشحّرة أم العبد سقّطت توم.. كومة لحم.. وصارت

تنزف.. نَدْهَتْ عليّ وقلتلي: شو بدّي أعمل.. قلتلها قومي يا مشحّرة قومي آخذك عند الداية أم حسين خليها تكشف عليك، قبل ما يتصفّى دمّك».

كان أبو العبد بائع خضار متجوّل، يعمل على عربة خشبية منذ الصباح الباكر، حتى المغيب، وكان الفقر والمجهول سيفاً مسلّطاً فوق رؤوسهم، وعلى الرغم من ذلك، يعتبرون الأولاد هبَة من الله «يأتون ويأتي رزقهم معهم».

لم ينشغل بالهم كثيراً بـ«كيف سيعيشون.. ويتعلّمون».. ولم يفكّروا كثيراً في حاجاتهم النفسية أو التربوية.. ولا في مستقبلهم.. إلخ.. كانوا راضين تماماً، ومطمئنين، يستعينون ببعض الطحين، والمواد الغذائية والكسائية، التي توزّعها عليهم «الأونروا»، وحين يمرض ولدٌ من أولادهم تذهب به أم العبد إلى عيادة الوكالة المجانية. وفي مدارس «الأونروا» تلقّى الأولاد تعليمهم المجاني في المرحلتين الابتدائية والإعدادية، والمدهش، أنهم وعلى الرغم من كل تلك الظروف، كانوا يتقدمون في تحصيلهم العلمي، فقد حصل الابن الأكبر «عبد الرحمن» على الشهادة الثانوية، والتحق بمعهد متوسط هندسي، وتخرّج منه، وكذلك درست أخته سميرة الفلسفة في الجامعة وتخرّجت منها،.. وتبعتها شقيقتها الأصغر.. لكن الأخوة الأصغر سناً، لم يحافظوا على هذا الثبات، فتسربوا من المدارس وتعلّموا مهناً متعدّدة..

فُوجئت بعد مرور سنوات طويلة، وبينما كنت بانتظار سيارة أجرة، بوقوف سيارة فارهة تحمل لائحة بلدٍ خليجي، نزل منها شخص فارع الطول، يلبس دشداشة بيضاء، ويربي لحية كثّة. تقدّم نحوي مبتسماً: «مرحبا أستاذ جورج.. شو ما عرفتني؟!».

نظرت إليه حائراً.. فأضاف: «ما تذكّرت أم العبد في قصر

شمعايا؟!» عندئذٍ ومَضَتْ في ذهني كل تلك السنوات. ردَدَتْ: «طبعاً.. طبعاً.. ولو!!».

قال: «أنا ابنها عبد الرحمن».

سلّمت عليه بمودة قائلاً: والله زمان.. وقلت في نفسي: «سبحان مغيّر الأحوال» وسألته: أين أنتم.. وماذا تعمل؟!

قال: «أنا مقيم في الإمارات منذ عشرين سنة تقريباً، ولديّ شركة مقاولات»!

هززت رأسي: وماذا عن الوالد والوالدة.. وبقية الأخوة.. كيف حالهم؟!

قال مبتسماً: الوالد أعطاك عمره.. والوالدة تعيش مع أحد أخوتي.. الصبايا تزوجن، وقسم من أخوتي يعمل معي في الإمارات، وبعضهم يعمل هنا في مقاولات البناء. والحمد لله.. الوضع ماشي.

قلت لنفسي وأنا أتأمله: يا الله.. من كان يظن أن هذه الأسرة البائسة، سوف يطرأ عليها كل هذه التحوّلات؟!

راشيل خارج السرب

لم تُعجب راشيل في يوم من الأيام، بطريقة حياة شقيقاتها الثلاث: «فردوس، ومارسيل، وأستير»، اللواتي قضين زهرة شبابهن اليانع، في العمل لساعات طويلة يومياً، في مشغل الخياطة المقابل لقصر شمعايا، يُلْكِنَ الدقائق، والساعات، والأيام، والأسابيع، والسنوات، برتابةٍ بطيئة، قاتلة، وهن يحلمن بجمع «دوطة» العريس المنتظر من أبناء الطائفة، في الوقت الذي راح فيه شبابها، يتسرّبون الواحد تلو الآخر، بطرقٍ غير شرعية، ويختفون تحت ستار من السرّية الحديدية، دون أن يعلم أحدٌ كيف، ومتى؟!

انسحب هذا الأمر على أشقائهن الشبّان الثلاثة، الذين اختفوا على نحوٍ غامض، مخلّفين وراءهم صمت القبور، في بيت يئنُّ برغبات العذارى العوانس.. الحالمات..

سلّم والدهن العجوز رفول الروح بعد فترة قصيرة على هجرة أولاده غير الشرعية.. ثم لحقت به زوجته التي ألمّ بها حزن كامد، لتشتّت أسرتها، وإحساسها العميق بوحدة بناتها، وعزلتهن المخيفة، دون أمل.. أو رجاء.

وحدها راشيل، كانت من طينةٍ مختلفة عن شقيقاتها، بل هي مختلفة عن معظم الصبايا اليهوديات في الحارة.. ربما لأنها أكثر واقعية منهن، تعيش اللحظة، بلا أوهام زائفة.. أو سراب واهم.

فتاة فاتنة، مشتعلة، صاخبة، تصغي باهتمام إلى نداء روحها، وجسدها الفائر بالرغبات، فلا تنتظر، ولا تهرب إلى الأمام، ولا تحلم أحلاماً رومانسية، تعرف مسبقاً أنها لن تتحقق.

رفضت راشيل أن ترضخ للأمر الواقع، فحلّقت خارج السرب، فاردةً جناحيها للريح والمطر، لتخترق الحواجز.. والجدران.. والممانعات.. والرتابة.. وأوهام الانتظارات، فراحت تغتسل بمياه الحب، وتذوب بنار العشق الذي أشعل روحها.. وأنعش جسدها، وأشعرها أنها كائن إنساني عليه أن يروي رغباته وحاجاته، لكي تكتمل دورة الحياة.

لم يكن لدى راشيل أية مشكلة في اللقاء مع شباب قصر شمعايا من جيرانها الفلسطينيين، فراحت تتبادل معهم أطراف الحديث اليومي، والنكت، والممازحات الخفيفة الودّية. تتعامل مع الجميع بود وتسامح وانفتاح.. تداعب الأطفال وتجامل الجارات الفلسطينيات، وتضحك ملء قلبها مع الشباب.. وتطرح السلام باحترام على الشيوخ.. وبهذا السلوك فرضت حضورها الطاغي على جيرانها الفلسطينيين، على عكس شقيقاتها، اللواتي حجبن أنفسهن داخل شرنقة خانقة من العزلة، نسجنها من خيوط الأوهام.. والشكوك.. والخوف.

لم تشعر راشيل بالحَرَجْ، حينما بدأت بعض الهمسات بين النسوة في قصر شمعايا، حول علاقتها بمروان، بل كثيراً ما كانت تقف معه أمام بيتها المحاذي لقصر شمعايا، تبادله الحديث، والضحك الصافي الطليق.. غير مبالية بنظرات شقيقاتها المتشككات، أو نظرات شباب الحارة الذين يعرفون أنها تذهب معه إلى السينما أحياناً.. وإلى المسبح العائلي كل أسبوع، ليقضيا هناك النهار بمتعة واسترخاء.

فَتَنَ مروان راشيل بوسامته. شابٌ أسمر، خفيف الظل، متحدّث لبق، يدرس الطب، وهو الأكبر بين أشقائه، من عائلة مدينية فلسطينية،

كان عمره سنتين عندما هاجر أهله من فلسطين في العام 1948، ومثل كل الشباب من أبناء اللاجئين كان مهموماً بقضيته، يحاور، وينفعل، ويعيش صخب الأحداث، وعلى الرغم من شعوره الداخلي، بأن علاقته مع راشيل بلا أفق، لأسباب كثيرة لا تتعلّق بها، أو به، إلاّ أنه لم يستطع كبح جماح مشاعره التي تدفقت نحوها، وواجه بسبب ذلك مشاكل كثيرة مع أهله، وتحمّل تعليقات ساخرة من أصدقائه على الرغم من تفهّم بعضهم لطبيعة مشاعره نحوها.

شعر مروان بعد فترة أن حجم الضّغوط عليه أكبر من أن يجرؤ على خطوة الزواج منها، فقرّر السفر إلى مصر، بذريعة إكمال دراساته العليا.

شعرت راشيل بالإحباط، والحزن الشديد، وكادت تقع في شرنقة عزلة شقيقاتها، إلاّ أنها سرعان ما نهضت من كبوتها، واستعادت شيئاً من حيويتها، بحكم طبيعتها.. وبعد مدة قصيرة، اختفت من الحارة، تحت ستار من السرّية الشديدة، التي لا يعرف أحد خيوطها..

قال محمود، وهو فلسطيني من قصر شمعايا، هاجر إلى الولايات المتحدة، واستقر هناك، بعد أن فتح مطعماً صغيراً في نيويورك، يقدّم فيه وجبات عربية «فتات وحمص وفول وفلافل.. إلخ» حينما التقيت به بعد سنوات طويلة، أثناء زيارته لأهله في سوريا: في أحد المساءات، كنت أتحدث مع أحد الزبائن بالإنكليزية، ولا أدري لماذا شعرت فجأة بانخطاف نحو سيّدة ستينية دخلت المطعم، لكأن جاذبية مغناطيسية شدّتني إليها. التفت نحوها، فحدقت في وجهي، ثم عقدت الدهشة لساننا.

قالت ببطء: محمـــــ.. .. ـود؟!

قلت: راشيل؟

ثم تعانقنا.. وأجهشنا بالبكاء.

جلسنا إلى طاولة صغيرة في زاوية المطعم، ورحنا نتبادل الحديث بحرارة لأكثر من ساعتين. كأن شلال حنين راح يتفجّر في داخلنا، ويرنو لعبق المكان في قصر شمعايا.. وحارة اليهود الدمشقية. حدثتني عن أشواقها للحارة وأمسياتها، وذكرتني بمواقف وطرائف كثيرة غابت عن ذاكرتي، وحينما سألتها بمواربة عن مروان لكي لا أجرح مشاعرها، نظرت إليّ بانكسار وعلّقت بهمسٍ حزين: مروان ترك جرحاً غائراً في قلبي لم يدمله الزمن، لكنني سامحته.. ولم أحقد عليه، لأنني أعرف أن القضية أكبر مني ومنه. بقيت لسنوات أعيش على أمل اللقاء به. حاولت أن أحصل على عنوانه في مصر دون جدوى، ومع الزمن لم يبق منه سوى طيف ذاكرة يغيب أحياناً، ويلحّ بحضوره عليّ أحياناً أخرى، ليذكّرني ربما بالجرح الغائر في صدري.

قال محمود: بعد فترة صمت أضافت: منذ أن غادرت سورية بعد انكسار علاقتي بمروان، توجهت إلى الولايات المتحدة، واستقرّ بي المقام في «بروكلين» حيث تقيم جالية كبيرة من اليهود السوريين، عُرض عليّ السفر إلى إسرائيل وقُدّمت لي مغريات كثيرة، لكنني رفضت. عملت ممرضة في مركز للمسنين، وعلى الرغم من سهولة ورخاء العيش هنا، إلاّ أنني أشعر أن حياتي باتت بلا طعم ولا رائحة. تمضي الأيام والشهور والسنوات هكذا.. لا أدري كيف. لم أتزوج.. ولم أنجب، وحين أنظر إلى عزلة المسنين في المركز أشعر أن حياتي ستنتهي إلى هذا المآل: امرأة عجوز محطمة، تعيش حياة باردة، بلا دفء أو أسرة ترعاها، أو تهتم لأمرها، حينئذٍ أتذكر حياتنا هناك، أتذكر شقيقاتي وأعرف أن حياتهن أيضاً بائسة. فأتساءل: ما الذي حلّ بنا.. ولماذا كل هذا الخراب؟!

أبو البنات.. في «متاهته»!

لم يستطع أبو سعاد، الذي هاجر من فلسطين مع زوجته، وابنتيه الصغيرتين، ثم استقر به المقام في غرفةٍ صغيرة من غرف «قصر شمعايا» أن يحتمل، أو يهضم على مرّ السنوات، ما كان يعتبره محنةً ابتلاه بها الرب، لكي يمتحن صبره وإيمانه.. وفي كل مرة تحمل فيها زوجته، كان يتضرّع إلى الله، أن يرزقه ولداً يعينه على إعالة أسرته المتنامية باستمرار.. ومع كل مخاض لزوجته كان يقف أمام باب الغرفة قلقاً، متوتّراً، يدخن سيجارة تلو أخرى، بانتظار أن تطلّ القابلة، أو واحدة من بناته، لتبشره البشارة التي طال انتظارها.. بيد أن خيبات أمله راحت تتالى.. ومع كل خيبة، تُضاف طفلة بريئة إلى أعبائه الكثيرة، فيشعر بالضيق الخانق، ويخرج غاضباً، مكسوراً من «قصر شمعايا»، متوجهاً إلى إحدى الحانات، ويظل هناك يشرب كؤوساً متتالية من العَرَقْ على معدةٍ خاوية، إلى أن يترنّح من السكر، وبعد أن تُغلق الحانة أبوابها، يعود إلى بيته متمايلاً، في حالة مزرية، مشعث الشعر، متسخ الملابس، من القيء والأوحال بسبب سقوطه المتكرّر في أزقة الحارة.. وغالباً ما يصادفه بعض الشباب، فيساعدونه على الوصول إلى بيته، بعد أن يحلوا لهم تحويله إلى «مسخرة»، أو تسلية من تسلياتهم!

في كل يوم، يحتاج أبو سعاد إلى عدد من «بطحات» العرق، وثلاث علب سجائر، وغالباً ما يعلو الصراخ.. وأصوات الشتائم من غرفتهم، في

مشاجراته مع زوجته، التي يجبرها على منحه ثمن المشروب والدخان، حينما تكون جيوبه فارغة.. وفي الليالي التي يزداد فيها سكره، لا يقوى في الصباح التالي على الذهاب إلى عمله المياوم مع عمّال «التراحيل»، الذين يجتمعون عادةً في ساحةٍ من ساحات المدينة، بانتظار أن يأتي أحدهم، لاستخدامهم في نقل مواد البناء، أو ترحيل بقايا الهدم.

راح جسد (أبو سعاد) يتدهور مع الزمن، بسبب الإدمان.. والضيق.. وتراكم الأحزان والإحباطات.. وكانت تأتي عليه فترات، لا يقوى فيها على الذهاب إلى عمله، في الوقت الذي اشتدت معاناة أسرته، بسبب الفاقة، والفقر المدقع.

جَهِدَتْ زوجته كثيراً لمساعدته في إعالة الأسرة، بعد أن أصبح لديها سبع بنات، وُلدن على رؤوس بعضهن، فعملت في البداية مع بناتها على لفّ «السكاكر» و«العلكة» التي تأتي بها من المعامل في سوق «البزورية» المجاور، لكن هذا العمل كان مضنياً، ومردوده محدوداً، لا يكاد يفي بقوتهم اليومي.

بدأت الأنوثة الفائرة، تظهر على البنات الكبيرات، وعلى الرغم من خوف والدتهن الشديد على سمعتهن، جرّاء المناخ المحافظ، والمفاهيم السائدة حول عمل الفتيات في المشاغل، وما يتعرضن له من تحرّشات جنسية ومضايقات، إلاّ أنه لم يكن أمامها أي خيار آخر، سوى الدفع بهن إلى العمل في معامل «التريكو» في الأسواق المجاورة.

لم تستطع والدة البنات ضبط إيقاعهن، لا سيما حينما كانت ترفض زواجهن، بعد أن أصبحن المصدر الوحيد لإعالة الأسرة، وأمام ضغط الحاجة، وتفكك الأسرة، وفقدان سيطرة الأب، بات الطريق ممهّداً لوقوعهن فرائس سهلة في أحضان أصحاب المعامل، أو بعض شبان الحارة الذين وجدوا فيهن متنفساً لإرواء غرائزهم لقاء ثمنٍ بخس.

أخذت ألسنة النسوة في قصر شمعايا، تلوك سمعة البنتين الكبيرتين، خاصة حينما تَحدث مشاجرة مع والدتهن، لأي سبب من الأسباب، فتُوَاجَه بسيلٍ من الشتائم البذيئة التي تضرب على وترٍ حسّاس: «روحي ضبي بناتك هالشراميط.. يلي راكضين ورا الشباب ليل نهار..».

وكانت تتطور المشاجرة أحياناً إلى عراك بالأيدي وشد الشعر.. إلى أن يتدخل أحد الرجال ويصرخ عليهن: «فوتوا على بيوتكم انضبوا.. بلا أكل خرا..».

في هذه الحالة، تنطوي أم البنات على نفسها بقهر وذل، فيما بناتها الفائرات يزددن فجوراً.. وتحدّياً، ردّاً على قهرهن، وغالباً ما يسمع الجيران في أواخر الليل صوت صراخهن، مع شتائم والدهن الذي عاد من الحانة مترنّحاً، ليصبّ جام غضبه عليهن.

حلّت الشقيقتان الأصغر سناً بعد تركهما المدرسة مكان الكبيرتين في العمل لإعالة الأسرة، فأفرجت الأم عن البنتين الكبيرتين، ووجدت كلٌّ منهما عريساً لها، فانتقلت إحداهن مع زوجها إلى مدينة أخرى، بينما وجدت الثانية غرفة لها في دار من دور اليهود، لتستعيد بشكلٍ آخر ذات مسيرة البؤس في بيت أهلها.

لم يكن الوضع بالنسبة للشقيقتين الأصغر أفضل حالاً، كانتا تستيقظان في الصباح الباكر، وتذهبان إلى المعمل، لتعملا خلف آلة «الحبكة» حتى المساء. ساعات طويلة من العمل المضني، في مكانٍ شحيح الإضاءة، وسيّء التهوية.. ولم يكن مسموح لهما الشكوى.. أو التعبير عن مشاعرهما.

فتاتان جميلتان.. تضجّان أنوثة ونعومة، مطلوب منهما أن تدفنا رغباتهما، وأحلامهما المشروعة، تحت وطأة مسؤولية مبكّرة، فُرضت عليهما فرضاً.

أغوتني في مراهقتي إحداهما. كنت أصادفها أحياناً في مدخل قصر شمعايا، فأشعر بتسارع أنفاسها.. واهتزاز صدرها الناهد، وبسرعةٍ كانت ترمقني بتلك النظرة الخاطفة، مع ابتسامة خفية، فتشعل فيَّ نيران رغباتي الدفينة التي كنت أجهد من أجل السيطرة عليها.

لم أرغب في أن أكون رقماً مضافاً في سجل من يستغلون ضعف هذه الأسرة وتفكّكها، إضافةً إلى خوفي من الارتباط بفتاة سيئة السمعة، تلوكها الألسن، لا سيما وأن أكثر من شاب في قصر شمعايا، كشف لي عن مغامراته معها.

تعوّدت أن أصعد في أوقات ما بعد الظهيرة للدراسة في الغرفة العلوية، التي توسعت بها أسرتي، بعد رحيل عمتي «أم رشا» عنها. كانت هذه الغرفة تكشف تحويطة غرفة أبو البنات. أحياناً، حينما يغالبني الضجر من الدراسة، كنت أفتح النافذة، وأطلُّ منها، وغالباً ما تفاجئني عيون تلك الفتاة التي تلاحقني بجرأةٍ غير معهودة.

كنت أغض النظر أحياناً، وأحياناً أخرى تشتعل نيران الرغبات في داخلي، فأعاود النظر.. وهكذا بدأت التلميحات والإشارات بيننا.. وفي يومٍ من الأيام تجرأت وألقت لي بقصاصة ورق، كتبت عليها بخطٍ رديء، مليء بالأخطاء الإملائية عن مشاعر الحب التي تملأ قلبها تجاهي.

عشت حالة من التناقض الداخلي العنيف، بين رغباتي الجنسية التي كانت تتأجج نحوها وبين معرفتي، بأن عواطفي تجاهها، لا تعدو أكثر من استلطاف، لفتاة بائسة وضعها القدر في وجهي.

استغلت تلك الفتاة في إحدى الليالي انقطاع التيار الكهربائي، فتسللت على رؤوس أصابعها، وصعدت الدرج بخفة دون أن يراها أحد، إلى أن وصلت باب غرفتي، فنقرت عليه نقرات خفيفة. فتحت الباب وبوغت بها أمامي. دخلت الغرفة لاهثةً، ونظرت إليّ تلك النظرة المليئة

بالشبق، ودون أن ننطق بكلمة واحدة.. أغلقنا الباب.. وغصنا في قُبَلٍ لاهبة محمومة. كانت المرة الأولى التي أتحسس فيها جسداً أنثوياً، يفيض بالإثارة والشهوانية. فجأة جاء التيار الكهربائي، فتسارعت دقات قلبينا، واستيقظنا على حقيقة هذه المغامرة، التي قد تسبّب لنا فضيحةً غير محمودة.

فتحت الباب بأصابع مرتجفة، وراقبت الدرج، لكي أتأكّد من خلوّه.. ثم أشرت لها، فتسلّلت بارتباك عائدةً إلى غرفتها.

استمرت هذه المغامرات الصغيرة بيننا مدة من الزمن، يصاحبها القلق، والتوتر، وتأنيب الضمير، والتناقض المغلّف بغيوم الضباب إلى أن حسمت أمري نهائياً، ورحت أنأى بنفسي عنها.. ومن جهتها راحت تتنقّل من أحضان شاب إلى آخر.. إلى أن وجدت شخصاً رضي الزواج بها، ومعه استعادت سيرة شقيقاتها البائسة، وقهرهن.

في ليلة من ليالي الشتاء الباردة، تصاعد الصراخ والعويل في غرفة «أبو البنات». ظنّ الجيران الذين تجمعوا على صوت الصراخ أنها مشاجرة، كتلك المشاجرات التي تعودوا عليها، لكنهم فوجئوا بأن هذا العويل، هو، هذه المرة، على اختفاء «أبو البنات» الغامض منذ ثلاثة أيام.

حاولت أسرته في البداية إخفاء الأمر عن الجيران، تحاشياً لمزيد من الفضائح. بحثوا عنه في المستشفيات ومخافر الشرطة.. وعند الأقارب.. وفي كل مكان توقعوا أن يلجأ إليه.. دون فائدة.

غاب أبو البنات في متاهته. انتظروا الأيام، والأسابيع والأشهر، والسنوات.. وظلّ الأمل يراودهم بخبرٍ أو علم، أو خيط.. بلا نتيجة.. إلى أن طواه النسيان مع صخب الأحداث وتراكمها التي طالت حياة أسرته.. وغيّرت مصائرها.

الشيخ حمّود الأحدب!

كره الفتى حمود المدرسة، منذ سنواته الابتدائية، بسبب سخرية زملائه من «حَدَبته» الصغيرة، التي صارت تنمو مع نموّه، إلى أن باتت علامة فارقة، جعلته ينطوي على نفسه، ولا يخالط أقرانه، ليتجنّب تعليقاتهم الساخرة التي خلّفت ندوباً عميقة في روحه، لم يمحُ آثارها الزمن.

كان حمود أكبر أشقائه التسعة (خمسة ذكور، وأربع إناث). استقرت عائلته في «قصر شمعايا»، بعد معاناة التشرّد في الخيام والجوامع، وكان عمره سنتين حينما هاجرت أسرته بعد نكبة عام 1948 من إحدى قرى الجليل، لا يعرف والده (الفلاّح) سوى الزراعة، لذلك اضطر بعد النكبة إلى التنقّل في عدة أعمال شاقة، إلى أن وجد عملاً مستقراً في محافظة المدينة، بوصفه عامل تنظيفات.

تحوّل أشقّاء حمود الأصغر سناً إلى أطفال أشقياء.. صدامين في الحارة، لاضطرارهم الدائم للدفاع عن شقيقهم، الذي ينسحب مهزوماً، منكسراً أمام مضايقات أقرانه وسخرياتهم المستمرة من حَدَبته، ربما لإحساسه، وتسليمه بوطأة إعاقته.. واختلافهم عنه، لكن هذا الأمر كان يخلّف الحنق، والغيظ عند أشقائه، الذين سُرعان ما كانوا يواجهون الأطفال الآخرين بالشتائم، والعِراك بالأيدي، وشيئاً فشيئاً تأصّلت فيهم هذه العادة، وباتوا مصدر خوف لأقرانهم، لأنهم لا يتوانون عن فعل أي شيء، دفاعاً عن كرامة شقيقهم المهدورة.

لم يعرف أحد تماماً، متى بدأ حمود يهيم على وجهه.. قاصداً البساتين المجاورة لحي الأمين (التي باتت اليوم تُعرف بحي الصناعة)، حيث يقضي هناك ساعات النهار، منعزلاً، متوحداً بين الأشجار الكثيفة.. إلى أن تهدأ نفسه فيعود أدراجه إلى بيته في قصر شمعايا.

دارت شائعات كثيرة في القصر همساً، وتلميحاً حول تلك الساعات الطويلة التي يقضيها الصبي حمود في البساتين المجاورة، ومنها أن أحد «نواطير» البساتين.. لاحظ تردّده المستمر إلى هناك.. فأثار فضوله.. ومع الأيام صارا يتبادلان الأحاديث، وتعرّف الناطور إلى قصته، وكان يسمح له بقطف حبات من الجوز، أو المشمش.. ليسدّ بها رمقه، دون أن يدري حمود بأنها كانت الفخ الذي نصبه له، لكي يستدرجه إلى علاقة شاذّة، اغتالت براءته وقلبت كيانه، إلى أن باتت مع الزمن، عادةً من عاداته التي استمرأها، وراح يبحث عنها، بوصفها متعةً من متعه، يحقّقها - لا فرق - مع الناطور، أو غيره.. ممّن يجد لديه ميولاً لإشباع غرائزه الشاذة في تلك المساحات المعزولة.. النائية.. البعيدة عن الأعين.

بدأ حمود يذهب مع والده، بعد أن تسرّب من المدرسة، ليساعده في جمع القمامة، ثم تعلّم أن يبحث بين أكوامها عن قطع الزجاج.. والأسلاك النحاسية، وبقايا الخبز الجاف، ليبيعها لمخزن متخصّص في شراء بقايا النفايات، صاحبه يهودي من الحارة.

تطورت هذه العملية، فيما بعد، وباتت المهنة التي امتهنها حمود، ثم التحق أشقاؤه به، بعد أن تسربوا من المدارس الواحد تلو الآخر، وصاروا يقضون ساعات طويلة في مقلب القمامة الذي يقع خلف مدرسة الأليانس، بالقرب ممّا بات يطلق عليه اليوم: «ساحة البيطرة».

تعوّد حمود أن يأخذ معه منجلاً حديدياً، لينبش به أكوام القمامة

التي كانت تتحلّل تحت أشعة الشمس اللاهبة.. يقضي الساعات هو وأشقاؤه في جمع ما تيسّر لهم من أسلاك النحاس، والزجاجات الفارغة.. إلخ. ثم اشترى حماراً، لكي ينقل عليه بضاعته في أكياس خيش، تحوي بعضها بقايا عظمية، وأخرى خبزاً جافاً.. وأخرى قطعاً نحاسية، أو زجاجية أو علب كرتون.. إلخ.. وهكذا باتت الرائحة النفّاذة الكريهة، رائحة القمامة المتحلّلة هي العلامة الفارقة التي تنبعث من حمود، وتنتشر من حوله لتزكم الأنوف، كلما مرّ هو وحماره في دهليز قصر شمعايا، قاصداً غرفة أسرته، التي أوجد في تحويطتها، مكاناً لحماره، مساعده الأمين في الحصول على رزقه.

لم يعرف أحدٌ أيضاً، متى، وكيف بدأ حمود يتردّد على إحدى حلقات الذكر الصوفية التي تُقام في جامع صغير في حي الشاغور. هناك كانوا يقيمون الحضرة، ويبدأون الذكر والدوران على أصوات الدف مردّدين «الله حي.. الله حي.. مَدَدْ.. مَددٌ» إلى أن يصلوا درجة الإعياء القصوى في حالة من الانخطاف الروحي، الذي يبعدهم عن الإحساس بالزمان والمكان.

منذ ذلك الحين أطلق حمود لحيته، وصار يضع على رأسه عمامة مزنّرة بشريط من القماش الأخضر.. وصار يُطلق عليه الشيخ حمود.. لكن هذا التحوّل لم يغير من حالته شيئاً، فقد ظلّت هيئته المتسخة على حالها.. وظلت رائحة القمامة المتحلّلة.. الكريهة.. تنبعث منه.. وتنتشر في فضاء قصر شمعايا، كلّما مرّ، باعتبارها علامة فارقة من علاماته التي فاقت بتمايزها «الحَدَبة» المستقرة بين كتفيه.

القابلة أم حسين

فرضت القابلة أم حسين، بطولها الفارع، وسمرتها الغامقة، وقوة شخصيتها الطاغية، النابعة من تعدّد مواهبها.. وإدارتها الناجحة لأسرتها الكبيرة المؤلفة من سبعة ذكور وبنتين (معظمهم وُلد في فلسطين) حضورها ومهابتها على كل الأسر القاطنة في قصر شمعايا، وخصوصاً على النسوة، اللواتي يستشرنها حول أدق التفاصيل التي تخص علاقتهن الحميمة مع أزواجهن.

كانت أم حسين على معرفة بكل شاردة وواردة، مما يجري داخل الغرف المغلقة في قصر شمعايا.. وقد اكتسبت ثقة النسوة، لتكتّمها الشديد، ونفورها من الثرثرة، على الرغم من أنها لم تكن تتوانى عن استخدام لسانها السليط مع النسوة، إذا لم يمتثلن لنصائحها.

لم تتوقف أم حسين عند استثمار خبرتها الطويلة التي اكتسبتها من توليد النساء، بوصفها قابلة شعبية، أو بمعالجة الأطفال والكبار بالطب الشعبي الذي تمرست في فنونه: كالحجامة، والمعالجة بالأعشاب.. بل كانت أيضاً القيادة العليا، والآمرة الناهية، القادرة على تحريك طاقات زوجها، وأبناءها الذين كانوا يتابعون تعليمهم، وفي الوقت ذاته يعملون تحت إمرتها في مهنٍ شتى، تفكّر بها بوصفها مشاريع صغيرة، سرعان ما تتوسع وتزدهر.

حرّضت أم حسين في البدايات زوجها وأبناءها على بيع «عرانيس

الذرة المسلوقة». كانت تذهب معهم إلى «سوق الهال»، وتتسوّق بنفسها الأنواع التي تحتاجها، وحوّلت غرفتها إلى ما يشبه ورشة عمل تضجُّ بالحركة والحيوية. كانت تستدعي أطفال قصر شمعايا الصغار، ليساعدونها على نزع القشرة الخارجية لـ«عرانيس الذرة» ثم تضعها في حلّة كبيرة وتسلقها، لكي يخرج بها زوجها أو أحد أولادها إلى الشارع لبيعها.. وحتى تتسع مشاريعها كانت تجد لأبنائها الآخرين فرصاً أخرى، فتدفع أحدهم إلى بيع «البوظة» في الصيف، و«تماري الكعك» في الشتاء، وفي مواسم التفاح السكّري، كانت تصنّع لهم «العنبر». تغرز التفاحة الصغيرة بعود خشبي، ثم تغطسها بطبخة من الماء المغلي، المعقود مع السكر، وملح الليمون، وملوّنات حمراء.. وتصفّها على صينية يخرج بها أحد أولادها، ليبيعها لأطفال الحي.

أحياناً كانت تصنّع لهم نوعاً من الحلويات البسيطة التي تُسمّى «هيلطية»، وهي خلطة من السميد والسكر، ترشُّ فوقها جوز الهند الجاف، وتقطّعها إلى قطع صغيرة في صوانٍ، يحملها أولادها ويتجولون بها لبيعها. هذا الأمر كان يثير منافسةً قوية بين نسوة قصر شمعايا، اللواتي يحسدن أم حسين على شطارتها، فيدفعن أبناءهن إلى بيع «الذرة» أو «تماري الكعك» والبوظة.. والعنبر.. والترمس.. فيكثُر الأطفال – الباعة في أزقة حارة اليهود، والأحياء المجاورة، ينادون على بضاعتهم الكاسدة، الأمر الذي يدفع أم حسين إلى إبداع فكرة جديدة.

بعد أن توسعت أعمال أم حسين، وضاق بها المكان، طلبت من زوجها وأولادها ضمّ الفراغ المحاذي لغرفتها مع فسقية الدار (التي جفّت مياهها، وتهدّمت حوافها) إلى غرفتها، ثم خطرت في ذهنها فكرة لم يسبقها إليها أحد، فقد اكتشفت أن بإمكانها أن تشتري كل يومٍ بأسعار زهيدة حصص الحليب التي توزّعها «الأونروا» على أسر اللاجئين..

وهكذا صارت تذهب في الصباحات الباكرة إلى مركز توزيع الحليب في «الأليانس»، وتشتري تلك الحصص ممن يرغب في بيعها، وبعد أن تجمع ما حصلت عليه.. تنقله إلى بيتها في قصر شمعايا، وهناك تغلي الحليب في «حلل» كبيرة اشترتها خصيصاً لهذا الغرض، ثم تقوم بترويب الحليب في أوعية خاصة، وتعاقدت مع عدة بقاليات لتصريف منتوجاتها.. وهكذا تمازجت روائح الحليب المغلي المتخثر في فضاء «قصر شمعايا»، مع روائح القمامة، وبقايا العظام التي يجمعها الشيخ حمّود ويخزنها حتى يأتي وقت مبيعها، بالإضافة إلى الروائح الأخرى المنبعثة من هنا وهناك، لتشكّل مزيجاً غرائبياً، نفّاذاً، وخاصاً يمكن أن نطلق عليه: «رائحة قصر شمعايا».

بسبب الخبرة العملية التي اكتسبها أبناء أم حسين بشكلٍ مبكر، تحسّنت أحوالهم المادية، واستطاعوا متابعة تعليمهم المتوسط والعالي. أحدهم صار خطّاطاً ماهراً، درّت عليه مهنته الكثير من المال، وهو الذي رسم خارطة فلسطين في مدخل قصر شمعايا.. وكان يخطط معظم اللافتات في المناسبات الوطنية.. وكان في الوقت ذاته صاحب صوت شجيّ، يعزف على آلة العود، ويغني في الأفراح ويطرب..

وآخر بات من أشهر لاعبي كرة القدم، يلعب مع منتخب فلسطين.. وفي أكبر الأندية الدمشقية. تذوّق طعم النجومية، وفرح الانتصارات، ومرارة الهزائم.. وآخر تدرّج في مجال الأعمال، وبات فيما بعد مقاولاً كبيراً في مجال البناء، واستفاد من الفورة النفطية في مطلع السبعينيات ليجمع ثروةً كبيرة، ودرس أحد أبنائها الطب، وآخر الهندسة، وعلى الرغم من شراء أم حسين لبيت كبير في أحد ضواحي دمشق، غير أنها لم تترك مصدر رزقها في قصر شمعايا، إلا بعد أن كسر ظهرها استشهاد أحد أبنائها الذي التحق بصفوف الفدائيين في

لبنان. لكأنها بعد هذه الحادثة استسلمت لقدرها، فشعرت فجأة بتراكم تعب السنين ووطأتها، وشيئاً فشيئاً راحت تغزوها الأمراض، وتنهش جسدها، بعد أن نال الحزن من روحها، التي راحت تذوي، وتذبل رويداً.. رويداً إلى أن انطفأ النور في عينيها!

مناماتُ عيشة السلمان!

لم يستطع خالد السلمان.. وزوجته عائشة طوال السنوات الطويلة، التي عاشاها في قصر شمعايا، بعد رحلة اللجوء من قريتهما في الجليل الفلسطيني، التأقلم بأي حالٍ من الأحوال، مع نمط حياتهما الجديدة. ظل حلمهما المشروع معلّقاً هناك منديلاً ممزقاً على حاكورة بيتهما، التي كانا يزرعانها بالخضروات، وبعض الأشجار، يأكلان منها، مكتفيان بمردود اقتصادهما المنزلي البسيط.

بعد أن طالت سنوات اللجوء.. وضاقت الأحوال.. وكبر الأولاد الذين اقتاتوا على حلم والديهما، اشترى أحد أبنائهما لهما قطعة أرض صغيرة في المخيم، ليبني لهما منزلاً عليها، فأصرّ خالد السلمان أن يقتطع جزءاً منها، ليزرع فيها كرمةً، وشجرة تين.. وبعض الخضروات.

ولطالما تحايلت عائشة زوجة السلمان على حلمها، بتحويل تحويطة غرفتها في قصر شمعايا، إلى ما يشبه مشتلاً صغيراً، يفوح بعطر النباتات التي تزرعها، في إصصٍ صغيرة من التنك (العطرة، والسجّادة، والحبق، وتمّ السمكة والشب الظريف، والمستحية..» كل يوم تسقيها بماء عينيها، وتخاف عليها كما تخاف على أطفالها، وتغضب غضباً شديداً من الأولاد الذين يقذفون الكرة على تحويطتها، فيلحقون الأذى بنباتاتها.

كانت عيشة بطبيعتها امرأة مسالمة، بسيطة، متسامحة مع جاراتها، تتحمّل منهن أي شيء، باستثناء أن يؤذي أحد أطفالهن نباتاتها، عندئذٍ

تتحوّل إلى لبوة شرسة، مستعدة للمشاجرة مع جاراتها الجاحدات اللواتي لا يردعن أطفالهن عن إلحاق الأذى بنباتاتها.

كذلك لم يمنع ضيق المكان في قصر شمعايا خالد السلمان، تخلّيه عن عاداته الفلاحية، إذ كان يحلو له في كثير من الأحيان تربية الدجاج، والأرانب، التي يطلقها في دهاليز الدار، لتخلّف وراءها روثها وروائحها التي تختلط مع الروائح الأخرى، المنبعثة من هنا وهناك (روائح حليب أم حسين المتخثر، ونفايات الشيخ حمود الأحدب المتحلّلة..)، وزاد الطين بلّة، عندما اشترى السلمان بفرح غامر عنزتين صغيرتين، صار يربطهما في تحويطة غرفته، ويذهب بهما كل صباح إلى البساتين المجاورة، يرعاهما وكأنهما قطيع يداعب أحلامه، ويذكّره بقريته الجليلية الضائعة.

على الرغم من ضيق الجيران بهذه الحيوانات، وما تخلّفه من روائح لم يكن بمقدورهم منع السلمان من ممارسة عاداته، أو الاحتجاج عليها، لأن لدى كل منهم، ما يسبّب الإزعاج للآخرين، الأمر الذي يدفعهم إلى غضّ النظر عن بعضهم البعض، بنوعٍ من التواطؤ الضمني، تحاشياً لمشكلات، أو خلافات، قد لا تنتهي بينهم، فيما إذا احتجَّ أحدهم على هذا، أو ذاك.

غالباً ما تجتمع نسوة قصر شمعايا عند الصباحات في تحويطة عائشة، يتناولن القهوة بين نباتاتها.. ويسردن أحلامهن أمام بعضهن «خير بالصلاة على النبي، والله مبارح شفتلكن منام ما عجبني.. وقمت مرعوبة منو كتير».. هكذا تقول إحداهن، فتشرئب أعناقهن بفضولٍ شديد لسماع الحلم «خير.. خير إنشا الله خير.. هاتي لنشوف»، وتبدأ بسرد حلمها.. ثم تبدأ التفسيرات المتناقضة من هذه، أو تلك.. بعضها متفائل.. وبعضها متشائم..

عندما تسرد عائشة أحلامها، أمام نسوة قصر شمعايا، كن يصغين إليها برهبة واهتمام شديدين، لاعتقادهن أن أحلامها لا تخيب، بل كانت

أحلامها تسبّب لهن الخوف والقلق الشديد، من مصيبة ما قد تحطُّ بها، أو بهن.. في إحدى الليالي استيقظ الجيران عند الفجر على صوت جلَبة وصراخ صادر عن تحويطة عائشة السلمان، تراكضوا لمعرفة السبب، فوجدوا عائشة مغمى عليها، رشّوا المياه على وجهها.. وأحضر أحدهم بصلة، فركوها في أنفها، وشيئاً فشيئاً صحت من غيبوبتها، لكنها راحت ترتجف، مصفرّة الوجه، وفي حالة من الذعر والإعياء الشديدين.. دون أن تنطق بكلمة واحدة. أدخلوها إلى غرفتها.. وغطوها بعدة بطانيات، ومع ذلك، ظلت ترتجف من القشعريرة التي سكنت جسدها.

في الصباح، تجمّعت الجارات حولها، للاطمئنان عليها فقالت: «خير والصلاة على النبي.. شفت منام غريب.. خايفة منو كتير..» رددن: «خير.. خير إنشا الله خير.. شو شفتِ؟!»

-«كنت طالعة بدي أقضي حاجتي..»

نظرن إليها بدهشة.. وقاطعتها إحداهن:

-«عم بتقولي شُفتِ منام.. كيف شُفتي منام وإنتِ صاحية؟!»

-ما بعرف.. هادا يلي صار معي.. هو منام.. هو رؤيا ما بعرف..

أثار الأمر فضولهن أكثر، فأكثر.. «إيه، وبعدين شو صار؟!..»

-«شفت عمي أبو جوزي، لابس أبيض بأبيض، لحيتو بيضا.. وحاطط على راسو طقيه بيضه، نضيفه متل التلج.. والنور طالع من وجو وعيونو.. قلي: كيفك يا عمي يا عيشة.. قلتلو: الحمد الله يا عمي.. كيفك إنتِ. قلي: والله أنا جاي إلي غَرَضٌ عندكن.. عزيز عليك.. بدي أخذوا وأروح.. بس ما لازم تزعلي..»

«قلي هالكلمتين.. واختفى.. لما اختفى تذكّرت إنو ميّت من أيام فلسطين.. خفت كتير.. كيف بيحكي معي وهو ميت..وقتها ما عاد حسيت بإشي..»

خيّم صمت ثقيل على وجوه النسوة، ورحن ينظرن إلى بعضهن البعض بخوف وتوجّس.. إلى أن كسرت الصمت أم أحمد الشيخ طالب:

-«الله يجعلو خير.. الله يجعلو خير.. إذا ما كذبني ربي يمكن بدنا نفقد شخص عزيز علينا. هادا الغرض يلي بدّو يوخدوا (يأخذه) هو شخص، ومش أي شخص.. شخص عزيز كتير علينا».

تعالت تعليقات النسوة، وتداخلت مع بعضها، لكن تفسير أم أحمد للمنام، كان له وقْعه المتشائم عليهن.

بعد مضي حوالي شهرين على منام عائشة.. قصفت طائرة إسرائيلية سيارة «لاند روفر» لمجموعة من الفدائيين، قُتل وجُرح فيها ستة أشخاص كان بينهم فاروق ابن عيشة السلمان الذي أُصيب بحروق شديدة. بقي على إثرها في المشفى عدة أيامٍ إلى أن استشهد متأثراً بجراحه.

تؤمن عيشه إيماناً عميقاً، بوجود «قرينة» لكل ذكر، أو أنثى.. فإذا قُتل شخص ما.. ظلماً.. تظل روحه هائمة، وتظهر في الليالي المعتمة متجسّدة بقرينته، التي لا تهدأ، أو تستقر، إلى أن تظهر الحقيقة، ويُكشف عن القاتل، ويتم القصاص العادل منه، عندئذ فقط، تستقر روح القتيل، وتغيب قرينته.

ظلت نسوة قصر شمعايا.. وأطفالهن، يتوجسن لفترة طويلة من الزمن من الخروج ليلاً بعد استشهاد فاروق، خوفاً من ظهور قرينته، وعندما تضطر إحداهن إلى الخروج ليلاً لسبب قاهر، تقرأ عدة مرات آية الكرسي.. وتبسمل وتحوقل.. وعندما تعود إلى غرفتها تشرب من «طاسة الرعبة» هي وأولادها.. لكي تطمئن وتعود إلى توازنها، فيما رجالهن يضحكون من عقولهن الصغيرة، ويقنعوهن بأنه شهيد، والشهيد حبيب الله، يسكن في جنته آمناً مطمئناً.

روميو الفلسطيني.. وجولييت اليهودية

غالباً ما كان يعلّق أحمد الشيخ طالب حانقاً، أثناء حواراتنا الكثيرة، على ظاهرة سلبية، اعتبرها خطيرة، ولا تمثّل روح المقاومة الفلسطينية وجوهرها، باعتبارها قضية نبيلة، يجب أن يعكس أبناؤها بسلوكهم اليومي، أبعادها الأخلاقية، والإنسانية الكبيرة.. ولطالما أثار غضبه تبجّح بعض شباب قصر شمعايا، وحارة اليهود من اللاجئين، ممّن راحوا يتجوّلون بسلاحهم «الكلاشينكوف» بشكلٍ علني في دهاليز الحارة، خاصة بعد بروز علنية المقاومة، على إثر هزيمة الـ 1967. كان يحمل على هؤلاء بعنف قائلاً: «ماذا يريدون من هذا الاستعراض الفارغ؟!» ويضيف: «هل نحن بحاجة إلى استعراض العضلات هنا، لإغواء الصبايا.. أو تخويف البعض بالتفاخر.. والفشورة الفارغة، أم يكمن عملنا هناك.. حيث المواجهة الحقيقية؟!..».

بالتأكيد، كانت تلك المرحلة، مرحلة مد، شابها الكثير من الاختلاطات، والفوضى، ووجد البعض، ممن ينقصهم الوعي الكافي، مساحةً في هذه الفوضى، لتغذية عقد نقصهم، دون حسابات دقيقة لمخاطر المسألة، على الأبعاد الإنسانية والأخلاقية للمقاومة ككل، وربما لحسن الحظ، فقد تنبّه المسؤولون لمخاطر هذه الظاهرة السلبية، التي سرعان ما انكفأت، قبل أن تتمدّد، وتخرج عن السيطرة، فالنظام في سورية، ليس كالنظام في الأردن أو لبنان.

قال أحمد هذا الكلام بغضب مرّةً، تعليقاً على حادثة جرت في الحارة في تلك الفترة، بسبب تنافس شاب فلسطيني، مع شاب شيعي من حارة القساطلية على فتاة يهودية لعوب. كان كلٌّ منهما يحاول إغواءها بينما راحت تلعب بمشاعرهما معاً. تلتقي مع هذا، وتضحك مع ذاك، وكلٌّ منهما يظن أنها فتاته، إلى أن اكتشفا الأمر، وتشابكا مع بعضهما، وتطورت المشكلة إلى عراك بالأيدي، فسحب الشاب الشيعي سكيناً حادّة، وطعن الفلسطيني بيده، فجرحه جرحاً عميقاً.

تدخّل كبار السن من الطرفين، وفُضّت المشكلة بمصالحة، لكن تنافس الشابين على الفتاة لم ينته، وظلت الأحقاد والتربصات قائمة بينهما. مع انتشار علنية المقاومة، راح الشاب الفلسطيني، يستعرض عضلاته في الحارة، حاملاً «الكلاشينكوف»، الأمر الذي أشاع الخوف والتوتر عند عائلة الشاب الشيعي ولدى عائلة الفتاة اليهودية.. أمام هذه المشكلة، وخوفاً من تطورها إلى مصيبة، أذعن أهل الشاب والفتاة على الرغم من التعقيدات الطائفية بين الطرفين إلى الموافقة على زواجهما، تجنّباً لتصاعد المشكلة، وبعد شهرين من زواجهما، طلّقها لتعود إلى بيت أهلها، وتبيّن أن الزواج بينهما لم يكن عن قناعة عميقة، وموافقة أهل الطرفين بل هو مجرد حلّ مؤقت للمشكلة، وبعد فترة قصيرة اختفت هذه الفتاة من الحارة مع من كان يختفي من أبناء الطائفة تحت جنح الظلام.

بيد أن هذه الحادثة لا يمكن تعميمها، لأن هناك حوادث أخرى لها مدلولات مختلفة. إذ كثيراً ما كانت الروائح تختلط في حارة اليهود، التي تعجُّ بحركة سكانها من مختلف الطوائف.. الذين يعيشون جنباً إلى جنب مع اللاجئين الفلسطينيين، وخاصة في بعض المناسبات والأعياد الدينية، التي يصادف مجيئها أحياناً في التوقيت ذاته مثل عيد الفطر وعيد المصة، أو أعياد الميلاد اليهودية. في مثل هذه الحالات كان فرن أبو سليم

اليهودي، يضجُّ بالروائح المختلطة لحلويات الطرفين، التي يتم إعدادها في مثل هذه المناسبات، حيث تختلط روائح البهارات النفّاذة التي يستخدمها الفلسطينيون في صنع «كعك العيد» (المقروطة.. والمعمول.. وأقراص العجوة والجوز، والقزّحة..) وهي خليط من روائح اليانسون والسميد وجوزة الطيب، والقرنفل، وحبة البركة، والسمسم.. إلى جانب خبز الطابع المعجون بزيت الزيتون وحبة البركة.. تختلط هذه الروائح مع روائح أنواع مختلفة من المعجنات و«البيتفور» التي تصنعها ربات البيوت اليهوديات بأشكال وقوالب صغيرة وأنيقة. كانت هذه الحلويات تعبّر بأشكالها وروائحها عن ثقافتين مختلفتين، لكن كل طرف، كانت تثيره روائح الطرف الآخر.. وتسيّل لعابه، ولطالما كان يتجرأ أحدهم، من هذا الطرف أو ذاك على استحياء، فيطلب تذوّق حلويات الآخر، الأمر الذي يذيب مباشرة الجليد بينهما، فيسارعان إلى تحميل بعضهما ما تيسّر، كلٌّ من حلوياته، فتنتصر بذلك المشاعر الإنسانية على التحفظات والخوف والموانع.. وتقرّب البشر من بعضهم البعض بوصفهم بشراً.

حدثني أحمد مرة عن حادثة مأساوية، جرت في الحارة، ظلت ذيولها ماثلةً في الأذهان لفترة طويلة لدى الطرفين. كان هناك فتى فلسطيني مراهق، وقع في غرام ابنة جيرانهم اليهود التي تصغره بسنتين. كان دائماً يشاهدها في الحارة من بعيد، لكنه لا يجرؤ على الحديث معها، ومن جهتها كانت تبادله النظرات بخفر أنثوي.. ترتبك ويحمر وجهها كلما التقت نظراتهما، ثم تسرّع خطواتها، وقبل أن تدخل زقاق بيتها، تتلفت نحوه، وتبتسم ابتسامة خاطفة قبل أن تختفي. في إحدى المرات التقيا بفرن أبو سليم، في أجواء التحضير للأعياد.. كان ينتظر مع شقيقه دورهم لخبز حلويات العيد التي أعدتها والدته (مقروطة.. ومعمول.. وقزحة.. وأقراص العجوة والجوز..)، بينما وقفت هي جانباً

بانتظار أن تبرد صاجات المعجنات خاصتها بأشكالها الصغيرة، المتنوعة، على شكل قلوب، ودوائر، ومثلثات، ونجوم..

تماهت رائحة معجناتها الجذابة، مع عطر الأنوثة الفياضة التي تنبعث منها، فتجرأ لأول مرة واقترب منها. ابتسمت له ابتسامتها المسكرة التي طالما حملته على أجنحتها إلى عوالم قصية.. تبادلا بتناغم أطراف الحديث.. وأمسكت بقطعة حلوى، بأصابعها الرقيقة، وقدّمتها له.. تناولها بارتباك، وقضمها على مهل، مستمتعاً بنشوة تلك اللحظة الملائكية، وبتأنٍ ساعدها في تنضيد حلوياتها في علبة كرتونية، وقبل أن تخرج بقليل، بدأت حلوياته تخرج من بيت النار، وتشيع عبقها الخاص في فضاء الفرن، فأمسك بقطعة من كل نوع، وضيفها إياها. كان اللقاء بينهما متوهجاً، دافئاً مثل أغنية رومانسية هادئة، مليئة بالشجن وسحر المشاعر الملتبسة، التي حلقت بهما بعيداً خارج الزمان والمكان.

كان هذا الفتى ينغمس أحياناً في لعب الكرة، أو «الدحل» مع أقرانه في الحارة، فإذا حدث أن مرّت فتاته بالقرب منهم كان ينتفض فجأة كالملسوع، ليداري رقعة بنطاله خوفاً من أن تراها حبيبته، التي تمرُّ كنسمة لطيفة، خفيفة، توقظ الحواس في كل خلية من خلاياه.. كان يستند إلى الجدار لكي يخفي رقعة بنطاله خجلاً محمّر الوجه إلى أن يشيّعها بابتسامة حلوة وهي تمر، وتبادله بمثلها. تلك النظرات المحمومة.. الأليفة كانت كل شيء بالنسبة لهما. كان رفاقه يضيقون ذرعاً، لأنه توقّف عن اللعب، فيمطرونه بسخرياتهم، لكنه لا يتزحزح، إلا بعد أن تتوارى عن أنظاره، عندئذٍ يعود إلى اللعب، ممتلئاً بجمال طيفها الحبيب.

كَبُرَ الفتى.. وكَبُرت الفتاة على هذه المشاعر الفاتنة، التي نمت وتغذّت مع الأيام، عبر تبادل الرسائل.. والأحاديث السريعة، الخاطفة، التي يعبّران من خلالها عن وَلَه كل منهما بالآخر. كانت العاطفة التي

ربطتهما إلى بعضهما عاطفة جياشة، مجنونة، لا تعترف بالحواجز والحدود، والاختلافات.. وكانا أشبه بعصفورين طليقين، يحلّقان في فضاء الله الواسع بحرية، ووداعة وجمال.

بعد أن تجاوز كلٌّ منهما العشرين من عمره.. قرّرا الزواج. فاتح كل منهما أهله بهذا الأمر، فقامت الدنيا ولم تقعد. وقف أهل الشاب في وجهه بقوة، معنّفين، متوعدين، ومهدّدين، ووقف أهل الفتاة في وجهها، ومن ورائهم كل الطائفة، يمارسون كل أشكال الضغط والتهديد والترهيب. لم يكن الشابان في مستوى من الخبرة، أو النضج، حتى يستطيعا مواجهة هذه الضغوطات والتهديدات، ولم يكونا قادرين على تدبّر أمورهما أو التحايل عليها، فوقعا في حالةٍ من الحزن والقنوط الشديدين، وفي أحد الصباحات صبَّ الشاب الكاز على نفسه، وأشعل النار بجسده.. سمعت الفتاة بما حلّ به، فوجدوها في صباح اليوم الثاني جثة هامدة، وقد تجرعت السم لتلحق به.

على إيقاع الحزن والوجوم، الذي خيّم على حارة اليهود.. خرجت جنازتان بطقوس مختلفة، لعاشقين غادرا الحياة، لاعتبارات، لم يدركا كنهها.

نظام أمومي

لفت جورج انتباهي في إحدى المرات إلى مسألة هامة كان لها خصوصية شديدة في 'قصر شمعايا'. قال لي: ألا تلاحظ أنك كلما تحدثت عن القصر تقول لي: هذا ابن أم حسين.. وذاك ابن أم العبد.. أو فاطمة الحسنين، أو أن عمتي أم رشا قالت كذا.. وفلانة فعلت كذا.. ألا تلاحظ أنك دوماً تتحدث عن دور الأمهات في حياتكم، وكأن الآباء لا وجود لهم، أو أن دورهم هامشي في حياتكم؟!

أضاف: لقد فكّرت ملياً في هذا الأمر، ووجدت أنه ربما ينسحب على معظم الجيل الأول من اللاجئين.

قلت له بدهشة، وكأنني أكتشف اكتشافاً: هذا صحيح وغريب فعلاً، وكمن يفكّر بصوتٍ عالٍ أضفت بتوهج: أنا مثلاً لا أذكر أنني ذهبت في يومٍ من الأيام مع والدي لإحضار الإعاشة من مركز «وكالة الغوث». كنت دائماً أذهب مع والدتي، وهناك بات الجميع يعرفونها، وصرت أُعرَفُ من خلالها، يقولون لي: إنت ابن فلانة.. هذا الأمر كان يريحني، ويثير الحنق في داخلي.. قبل أن أعي حجم الصعوبات التي دفعت أمهاتنا إلى تحمّل مثل هذه المسؤوليات.. أمي مثل كل جاراتنا، كانت تذهب إلى مركز «الإعاشة»، تصارع الازدحام وتقف على الدور، وتراقب وزن الكمية، وتتفق مع الحمّال، وكنت أساعدها في نقل أكياس القماش، التي خصّصتها لنقل السكر، والرز والعدس. كان الحمّال يضع كيس الطحين

على ظهر الحمار، أو العربة.. وكنت أحمل مع والدتي ما يفيض من المواد التموينية بأيدينا حتى نصل إلى البيت. مثلاً لم يفكّر والدي، أو أحد آباء جيراننا في قصر شمعايا في الذهاب إلاّ نادراً إلى مركز توزيع ألبسة البالة في مركز «برج الروس» التابع لوكالة الغوث، دائماً النسوة من اللواتي يقفن في الطابور. كنت أذهب مع أمي وأحد أشقائي، وأُدهش كيف تجادل أمي الموظف المسؤول عن التوزيع، لتحصل على أفضل القطع المناسبة لنا، وفي البيت تفتح البالة، فتهف رائحة «النفتالين» ثم نغرق بفرح طفولي بين القطع من مختلف القياسات والألوان، بعضها نافع ومناسب، وبعضها يثير الضحك بيننا، كأن يكون فستان سهرة بلا أكمام، أو «بموديل» غربي لا يناسب والدتي. نقول لها ساخرين: «قيسي الفستان، ربما يكون جميلاً عليكِ» فترمقنا بنظرة جدّية قاسية، فننفجر ضاحكين.. كانت معظم كسوتنا في تلك المرحلة من هذه البالات: سراويل وأحذية، وقبعات، وقفازات صوفية، وكنزات وستر جلدية.. وكلها ذات موديلات غرائبية، أحياناً نرفض ارتداءها، لكن أمي تجبرنا على ذلك، بعد أن تعيد تضييقها، أو تصغير مقاساتها لكي تناسبنا.. وكل النسوة في قصر شمعايا، كن يجمعن القطع غير النافعة من تلك الألبسة ويقصصنها، ثم يدرزن تلك القصاصات لتصبح على شكل حبال من الأقمشة، بغض النظر عن ألوانها، ثم يلففنها على شكل كرات قماشية، نحملها ونذهب بها إلى معمل يدوي لحياكة البُسط، يصنّعها لنا، ونعود بها لنفرشها في أرضية غرفنا، بأقل التكاليف الممكنة. يقول أحمد بحماس: أمهاتنا نساء مبدعات، تحايلن بحنكة واقتدار على ظروفهن القاسية، لكي نستمر في الحياة. هل تعلم مثلاً، أن كل الفراش والوسائد التي ننام عليها، هي من بقايا الخرق البالية التي لا تصلح لشيء. كانت والدتي، مثل بقية النسوة في قصر شمعايا، يجمعن هذه الخرق ونذهب

بها إلى «مندفة» في حي الشاغور القريب، وهناك نفرمها، فتتحوّل إلى ندف طرية ناعمة، وكنت أذهب مع والدتي، وأحد أشقائي إلى هناك ننتظر ندفها، ثم نضع كمّامة على أنوفنا، ونملأها في كيس قماشي، لتصنّع منها والدتي الفراش والوسائد.

نحن لم نعرف الصوف، إلا بعد فترة طويلة من الزمن، وكان حدثاً كبيراً في بيتنا، عندما اشترت والدتي عدة أرطال من الصوف من تاجر يهودي في الحارة، قامت بنشرها على سطح الكنيس، لكي تطرد الرطوبة منها، ثم جاءت بقضيب رمّان، وقامت بندفها، ثم نجّدت منها فرشةً ثقيلة، وضعتها على السرير الوحيد في غرفتنا، فكان هذا الحدث مفصلاً مهمّاً من مفاصل حياتنا.

على الرغم من كل ذلك، اخترعت أمهاتنا لنا فسحات من الفرح في بحيرة أحزاننا.. كأن يجمعن مثلاً بزر البطيخ الأسود، ويقمن بتمليحه وتحميصه، وفي الليالي القائظة، نصعد إلى سطح الكنيس (الفسحة الوحيدة المتاحة أمامنا)، نرش أرضيته بالمياه، ثم نفرش الحصر والبطانيات والوسائد لنقضي السهرات مع جيراننا، على ضوء القمر المنير، ننتظر أن تنتهي أمهاتنا من تحميص البزر الأسود، الذي تفوح رائحته، لنتسلّى به ونحن نعدّ النجوم الساطعة.. نتسامر، ونضحك، وربما نغفو بتلذّذ على صوت حكايات أمهاتنا، اللواتي كن يحذرننا من عدّ النجوم، لأنها تجلب الثآليل الصغيرة إلى أيدينا.

غالباً ما كانت فاطمة الحسنين، صديقة والدتي المقرّبة بين كل جاراتها تشاركنا هذه المسامرات الليلية، بينما يقضي الآباء أوقاتهم في المقهى، يلعبون الورق، أو يدخنون النارجيلة، ويجتمعون أحياناً خصيصاً لكي يستمعوا بانتباه إلى خطابات عبد الناصر النارية، التي تجذبنا حتى نحن الفتيان الصغار. كانت فاطمة حريصة على الاستماع بكل انتباه

لخطابات عبد الناصر، تفتح راديو «ترانزستور» صغير، عندما يحين موعد الخطاب، وتصرخ علينا، لكي لا نحدث أي ضجيج، أو جلبة، ثم تبدأ هي ووالدتي على طريقتهما العفوية في التعليق على الخطاب بحماس، ترفعان أيديهما إلى السماء، وتدعوان الله من كل قلبيهما، أن ينصر عبد الناصر على أعدائه، حتى يحرّر لنا فلسطين ونعود إلى ديارنا.

لطالما أدهشتنا فاطمة، بما تحفظ من الأغاني والأهازيج الفلسطينية.. امرأة تشتعل بالذكاء الفطري، والجرأة، تقتحم حلقات الدبكة في المناسبات الوطنية، والأعراس.. ودائماً عقلها يقظ، تراقب كل ما يجري حولها بحذرٍ شديد، فتضبط الإيقاع، وتقوّم السلوك، وليس لديها مشكلة بأن تنتقد بسخرية لاذعة هذا أو ذاك، فيما إذا شذّ بسلوكه، أو اشتمت أنه ينوي شيئاً ما.. لا يروقها. الجميع كانوا يحترمونها، ويهابونها، صغاراً وكباراً، تقف في الدبكة على الأول، وبعيونها المتوهجة، وجسدها الفارع، المنتصب كالسهم تدبك وتغني لفلسطين.. الأرض المقدسة، الضائعة.. بزيتونها وسهولها وجبالها.. وبياراتها.. وبيوتها الحزينة التي تنتظر أبناءها.. كانت فاطمة بحضورها الطاغي، تلهب الحماس.. وتشعل جذوة الحنين.. وتبعث الأمل وتشد الهمم.. تزغرد للشبان الذاهبين إلى معسكرات الفدائيين.. ملوّحة تلويحة الوداع بمنديلها.. بمزيج من الحزن والفرح والتوهّج. غرفتها الصغيرة في قصر شمعايا، شهدت اجتماعات الخلايا السرّية الأولى للفدائيين، كان شقيق زوجها يهمس في أذنها: «اليوم الشباب مجتمعين»، فتأخذ أولادها الكثر إلى الغرفة المجاورة التي تقطن فيها أم زوجها العجوز.. وتهيئ نفسها لتلبية كل الطلبات. كانت تدخل عليهم بكاسات الشاي، والقهوة، وتنتظر حتى ساعةٍ متأخّرة من الليل، حتى ينتهوا من اجتماعهم. تراقب لهم الممر الخارجي، حتى يتسلّلوا بهدوء، الواحد تلو الآخر، لكي لا يلفتوا انتباه أحد.

سنوات العتمة!

تقدّمنا أنا وفواز وأحمد الشيخ طالب إلى امتحانات شهادة الدراسة الثانوية في أواخر الستينيات، وبعد انتهاء الامتحانات بأيام زارني أحمد في بيتي. كان مشتّت الذهن، صامتاً في أغلب الأحيان، وكأنه يصغي إلى أصواتٍ ما في داخله، أكثر من الإصغاء إليّ، فشعرت أنه يخفي عني أمراً ما.

سألته: ما بكَ، كأنك لست معي؟!

فراح يعتذر، معلّلاً ذلك بمشكلة ما تواجهه، لا يرغب في الحديث عنها.

شدّدتُ عليه: نحن أصدقاء.. والأصدقاء يصارحون بعضهم بكل ما يواجهونه.

لكنه رفض الحديث عن الموضوع، فامتثلت لرغبته، على الرغم من قلقي عليه، لا سيما حينما نظر في عينيّ تلك النظرة الملتبسة لحظة وداعه، التي ما برحت تعاودني في السنوات اللاحقة، كلما تذكّرته.

استغربت انقطاعه المفاجئ عني، وعدم اتصاله، فقرّرت بعد حوالي أسبوعين الذهاب إلى بيته للاطمئنان عنه. لم أجده في البيت، فأصرّت والدته عليّ بالدخول. شعرت أن الصمت والوجوم يسيطران على الوجوه، وكانت والدته في حالة حزنٍ شديد، وكأن قلب الأم ينبئها ببعض الإشارات السلبية. قالت لي: «ما راح ودّعك؟!».

قلت باندهاش: «ليش وينو؟!».

قالت بحزن: «راح مع الفدائية.. ومش عارفين عنو إشي».

ثم تضرعت إلى الله أن يحميه ويوفّقه وينصره ويرضى عليه، ويحمي كل الشباب.. ويعيديهم سالمين غانمين إلى أهلهم.. واغرورقت عيناها بالدموع.

ارتعش جسدي.. وعرفت أنه جاء في المرة الأخيرة ليودعني، دون أن يبوح بما هو عازم عليه.

أُعلنت بعد عدة أسابيع نتائج الثانوية العامة، وكان أحمد بين الناجحين، فذهبت لأبارك لأهله بنجاحه، وذهب معي فواز، الذي كان بدوره قلقاً على أحمد، يلحُّ دائماً بالسؤال عن أخباره.

كان اللقاء مزيجاً من الفرح والدموع والأمل والانتظار. هنأتنا أم أحمد ووالده بنجاحنا أيضاً.. ودعت لنا بالتوفيق.. وتضرّعت إلى الله أن يحميه، ويعمي أنظار أعدائه عنه..

بدأ القلق يساورنا، ويزداد حدّة، حينما أعلنت الجامعة عن معدّلات القبول في الجامعة، وبدأنا نقدّم أوراقنا. كانت علامات أحمد تؤهله للقبول في أي فرع يرغب به في الجامعة. واستغربنا عدم حضوره لتقديم أوراقه.

كان والده المؤمن بالله والقدر يقول: «سلّمنا أمرنا لله العلي القدير.. المكتوب مكتوب»، لكن عاطفة الأمومة عند والدته كانت تتغلّب عليها فتنفجر في البكاء.. ثم تمسح دموعها وتقول: «الحمد لله.. بس أحمد بيعرف حالتنا.. ولازم يجي يسجّل بالجامعة».

حاولنا طمأنتها قدر الإمكان، لتسلّم بالأمر الواقع.

بدأت أقتنع أنا وفواز، أن أحمد قد حسم خياراته، وقرّر أن يتفرّغ للمقاومة، ولن يلتحق بالجامعة، مع العلم أننا ناقشنا معه هذه المسألة

أكثر من مرة، وكان يبدي حماسته للعلم، ولا يعتبره عائقاً أمام نضاله، بل كان يقول: ينبغي على المقاوم أن يكون على درجة عالية من التحصيل العلمي.. إذاً، ما الذي حصل معه.. ولماذا غيّر قناعاته؟!

توضّحت الصورة، حينما علمنا بعد عدة أشهر أن أحمد كان مع مجموعة من الفدائيين في مهمة داخل الأراضي المحتلة.. حيث هاجمت مجموعته مستوطنة إسرائيلية، وأوقعت بها خسائر فادحة، لكن اثنين من المجموعة استشهدا، وانسحب ثلاثة بينهم أحمد إلى الأحراش المجاورة، وحوصروا هناك لعدة أيام، وقام حرس الحدود الإسرائيلي بتمشيط المنطقة، فقاوموا حتى نفذت الذخيرة منهم، فتمّ إلقاء القبض عليهم. كان أحمد مُصاباً في فخذه إصابة خفيفة وراح ينزف بشدّة، قام رفاقه بالإسعافات الأولية له، الأمر الذي أعاقهم عن الحركة والانسحاب وسهّل عملية اعتقالهم.

حكمت المحكمة العسكرية الإسرائيلية على أحمد ورفاقه بثلاثة مؤبدات لكلٍ منهم، بعد أن تعرضوا لعمليات تعذيب جسدية ونفسية عنيفة أثناء التحقيق.

بعد معالجة أحمد من إصابته أعادوه إلى المعتقل، وأثناء التحقيق ركّزوا التعذيب على مكان الجرح.. فراح ينزُّ ويتقيّح، ولم يبرأ منه إلا بعد فترةٍ طويلةٍ من الزمن.

لم يوفّروا وسيلةً لانتزاع المعلومات منهم، إلا واستخدموها: الشبح بيد واحدة على باب الزنزانة.. وإدخال الكلاب البوليسية إلى زنزانتهم.. واستخدام تنقيط المياه على رؤوسهم بشكلٍ متواصل لمنعهم من النوم، تمهيداً لفقدانهم التركيز.. ومن ثمّ الانهيار. كل ذلك كان يجري قبل أن يراهم المحقّق، لتبدأ حفلة أخرى من التعذيب بالضرب في الكبلات الرباعية، ومن ثم عزلهم في زنزانات، واستخدام الضجيج الذي يفقدهم

أي إحساس في الزمان أو المكان.. ومن ثم معاودة التحقيق معهم، وهكذا..

لم أنقطع أنا وفواز عن زيارة أهل أحمد، وفي كل مرّة نذهب إلى زيارتهم، تستقبلنا والدته بحبٍّ وترحاب، ثم تغرورق عيناها بالدموع وتردّد كلمتها ذاتها: «إنتو من ريحة أحمد.. لا تقطعوني».

بعد عدة سنوات، وبعد محاولات كثيرة عن طريق الصليب الأحمر، سُمح لأهله بمراسلته. كانت والدته تذهب إلى مقرّ الصليب الأحمر في دمشق، فيعطونها بطاقات بيضاء رسمية مروّسة بشعار الصليب الأحمر، على قفاها تعليمات صارمة عليهم الالتزام بها. كانت والدته تطلب مني أن أكتب له الرسائل، وكان يغبطني هذا الأمر، لأنني على يقين أنه سيتعرّف إلى خطي.. وسيكون هذا الأمر، أشبه بالشيفرة السرّية للتواصل فيما بيننا. كنت أستخدم أحياناً بعض المجازات، وأنا متأكد أنه سيفهم مدلولاتها..

مرّت سنوات طويلة على اعتقال أحمد، حيث تخرّجت من الجامعة، وكذلك فواز الذي سافر إلى باريس لإكمال دراساته العليا في الفنون التشكيلية.. وخلال تلك الفترة توفّي والد أحمد، فشعرنا بحزنٍ شديد لرحيله قبل أن يشاهد أحمد حرّاً، طليقاً.. وفي أواخر السبعينيات استطاعت والدته الحصول على موافقة عن طريق الصليب الأحمر لزيارته، وسافرت إلى الأردن، ومن هناك سُمح لها بدخول الأراضي المحتلة بتصريح خاص. استقبلتها عائلة من معارفهم في رام الله بالضفة الغربية. سيدة وابنتها، كانت بالنسبة لأحمد بمنزلة «الأم البديلة»، حيث لم تنقطع عن زيارته في كل السنوات الماضية، فكانت عوناً معنوياً ومادياً له على تحمّل ثقل سنوات العتمة، وقسوتها.

زارته والدته في سجن «عسقلان»، بعد ثماني سنوات على

اعتقاله. مدة الزيارة كانت نصف ساعة، لم تستطع خلالها لمسه، أو ضمّه إلى صدرها وشمّ رائحته.. كان يفصلهما عن بعضهما ممر بعرض مترين، وشبكين حديديين.. وقف الحرّاس في داخله.. ووقف أحمد خلف الشبك مبتسماً، ليشدّ من عزيمتها، بينما من الداخل كانت تطحنه سنوات الاعتقال والمرض والعزلة، وكان حزن والدته المديد طاغياً على المشهد، لكنها أيضاً تماسكت أمامه، ومسحت دموعها التي طفرت من عينيها رغماً عنها، دعت له من كل قلبها أن يفك الله أسره.

ظلت أم أحمد، طوال السنوات اللاحقة للزيارة، تحدّثنا عن تلك اللحظات الأليمة، المليئة بالأسى والشجن، خاصةً لحظة انتهاء الزيارة ووداعه.

بعد عودتها من زيارته، شعرنا أنها كَبُرت عشر سنوات، ونال منها الزمن، لكنها لم تفقد إيمانها، أو أملها بحريته، وكانت تتضرّع إلى الله دائماً أن ترى ابنها في بيتها، وتحضنه قبل أن يأخذ أمانته.

لقاء عابر!

تعوّد فواز أثناء إقامته في باريس، الجلوس يومياً في أحد مقاهي «الشانزليزيه» يتناول قهوته الصباحية، ويقرأ الصحف، ويلتقي بعض الأصدقاء.

في إحدى المرات كان جالساً كعادته، يقرأ الصحف، فلمح من خلف زجاج المقهى موسى مع فتاة شقراء يعبران أمام المقهى. قال: لم أصدّق عيني، فنهضت بسرعة، ولحقت بهما. صرخت: «موسى»، تلفّت إلى مصدر الصوت، ووقف مستطلعاً بين حركة الناس. عندما شاهدني، ابتسم ابتسامته الهادئة، وتقدّم نحوي على مهل. تعانقنا..

-«أنتَ في باريس؟»

-«أوه.. منذ أكثر من سنتين..».

-«ماذا تفعل..؟»

-«أدرس الفنون التشكيلية في البوزار».

عرّفني على فتاته: «صديقة إيرلندية».

قلت له: «إذا في معكن وقت، خلينا نجلس في المقهى ونتحدث».

تلفّت إلى صديقته وقال لها بالإنكليزية: «علينا إلغاء كل مواعيدنا.. هذا صديق طفولتي في الشام».

هزّت كتفيها مبتسمةً ودخلنا المقهى.

تشعّب حديثنا باتجاهات مختلفة (الشام، والأصدقاء.. جورج

وأحمد.. وذكريات المدرسة)، وشعرت أنه بائس، محبط، على الرغم من محاولاته إخفاء ما هو عليه.

حين سألني عن أخبار أحمد، صَمَتُّ للحظة، لأنني تردّدتُ، هل أخبره باعتقاله، والحكم عليه بثلاثة مؤبدات في إسرائيل، أم أكتم عنه الخبر؟!

في الحقيقة، لم أدرِ لماذا صَمَتُّ.

شَعَرَ موسى أن في الأمر شيئاً.. قال: هل حَدَث له مكروه؟

قلت له: لا.. لا.. الواقع، هو الآن أسير عند الإسرائيليين..

خيَّم صمت ثقيل على الجلسة.. وأطرق موسى مفكّراً، دون أن ينطق بكلمة واحدة.. أو يعلّق على الأمر، لأنه فهم كل شيء..

كسرت الصمت بسؤاله:

-«شو عم تعمل في باريس»؟!

قال: تخرجت منذ سنوات من معهد السينما في لندن، والآن أقوم بتصوير فيلم وثائقي عن حياة اليهود العرب المهاجرين إلى إسرائيل..

هززت برأسي.. لكنه أكمل، لكي لا تذهب بي الظنون بعيداً..

-تدور فكرة الفيلم حول «هوية» اليهود العرب والشرقيين عموماً..

وأضاف: نحن في الأساس يهود - عرب.. ومنذ قرون طويلة نتعايش مع المسلمين والمسيحيين في نسيج واحد، قبل أن تقوم إسرائيل، والتمييزات التي كانت قائمة بيننا، هي تمييزات على أساس ديني: «يهود، مسلمين، مسيحيين»، وليس على أساس قومي، أي يهود مقابل عرب، وفكرة الفيلم تنطلق من هذه النقطة، فاليهود العرب، عبر التاريخ هم لبنة من لبنات الصرح الثقافي العربي، الذي تتعايش فيه بانسجام وتآلف أديان ومجموعات إثنية عديدة.. وما جرى بعد قيام إسرائيل هو تخريب لهذا

النسيج، وتمزيق قسري لهويتنا العربية، بوصفنا يهوداً - عرباً ننتمي لهذا المكان تاريخياً.

أضاف: المشكلة، إن مجموعة من الظروف، تضافرت ضدنا، ولم نعِ عمق هذه المسألة، إلا بعد أن هاجر بعضنا إلى إسرائيل، وهناك اكتشفنا مأساة نزع هويتنا العربية، حيث لم يعد بوسعنا العودة إلى بلادنا في العراق، أو سورية، أو اليمن.. ولم يعد بوسعنا التحدّث بلغتنا الأم: العربية، ونُزعت منا أسماؤنا العربية، وفُرضت علينا فرضاً الذاكرة اليهودية الأوروبية، بديلاً لذاكرتنا العربية، ونحن الآن نعيش حالةً من تمزّق الهوية، وفي كل بلد نذهب إليه نواجه بصعوبة فهم مشكلتنا.

سرقنا الوقت دون أن ندري، فطلبت منهما أن نتناول الغداء في مطعم قريب، ثم نكمل حديثنا. عرفت أنه يلتقي في لندن بين فترة وأخرى بعناصر من حزب «راكح» الذي يناضل في سبيل مساواة العرب واليهود، واستدرك: الأحزاب الشيوعية التقليدية تتشابه فيما بينها في كل مكان، وكلها باتت أحزاباً متكلّسة فقدت حضورها وتأثيرها، كذلك أخبرني أنه تعرّف على بعض الشباب من حركة «ماتسبن» التي تدعو إلى قيام شرق أوسط اشتراكي، لكنه اكتشف أنهم مجرد مجموعة صغيرة، غير فاعلة، من المثقفين الحالمين، وهي تشبه إلى حدٍّ كبير مجموعات اليسار الجديد في العالم العربي، الماركسية أو التروتسكية، من حيث أنها أيضاً مجموعات من المثقفين الحالمين، والهامشيين في مجتمعاتهم. ثم هز رأسه بيأس، وشرد للحظة، وعلّق بحزن: «يبدو ما في فايده!».

حدثني كذلك عن الضغوطات الكثيرة التي تعرّض لها، لأنه رفض الهجرة إلى إسرائيل، وهو يعيش الآن حالة من الضياع، دفعته إلى إدمان المخدرات، والعيش بطريقة بوهيمية مع جماعات «الهيبز».. ينظّر لفلسفتهم «عش اللحظة.. دون النظر إلى الماضي.. أو

المستقبل..» وهو يساكن فتاته الإيرلندية، التي علّمها بعض الكلمات العربية، يترجم لها بعض مقاطع من أغاني «أم كلثوم»، بينما يطارحها الغرام، وهما غارقان في ضباب المخدرات وحبوب الـ (L. S. D). شعرت بالحزن عليه، لأنه في حالة من التمزّق، والضياع المحزن، يداوي إحباطاته بالهروب من الواقع، والانغماس أكثر فأكثر في عالم الجنس والمخدرات.

الهجرة الثالثة

كيف كانت رشا تمضي الليالي والأيام، في بلاد الشمال الأمريكي.. وولاياتها المتعدّدة.. التي تنقّلت بينها، بحكم عمل زوجها رجل الأعمال السعودي؟! وكيف هامت راشيل على وجهها في بلاد الله الواسعة، إلى أن وصلت إلى نيويورك.. وجمعتها تلك الصدفة الغرائبية، بابن قصر شمعايا، اللاجئ الفلسطيني المهاجر.. الذي حمل معه رائحة الحمّص والفول والفلافل، ليجمع هناك، حول هذه الرائحة، حنين المهاجرين الغرباء إلى أزمان نائية، تتفجّر بين ضلوعهم عطراً وتوهجاً، وتوقاً إلى تلك البدايات المؤسية، على الرغم من كل تعاساتها؟!

وماذا يفعل أولاد أبو محمد الطبراني في بلاد الجليد الاسكندفاني؟! هل يصطادون السمك في بحر الشمال، ليستعيدوا ذاكرة والدهم في بحيرته الزرقاء الدافئة؟! أم أنهم يئنون تحت وطأة ذاكرته، التي تماهت بضباب كثيف مع ذكريات بؤسهم في قصر شمعايا.. وحارة اليهود الدمشقية، التي ظلت رائحتها النفّاذة حاضرة في أنوفهم، كعطر من الحنين إلى بلاد دافئة.. وعلاقات حميمة، بسيطة، فقدوا براءتها كلما أوغلوا نأياً.. وتمرغوا بين أحضان السكندنافيات، الحالمات بحكايا ألف ليلة وليلة.. والأمير الشرقي الأسمر القادم من بلاد الشمس.

هل يتذكر مروان كلما وقف أمام «أبو الهول» عطر راشيل.. وضحكتها؟! وأين حطّ أبو البنات الرحال.. بعد أن ضاقت به السبل؟!

أنجبت رشا ولدين وبنتاً، استهلكوا في السنوات العشر الأولى من هجرتها كل أوقاتها وطاقتها. كانت تركض لاهثة باستمرار لمواكبة الإيقاعات السريعة التي فُرضت على حياتها الجديدة. تحضّر أطفالها إلى الروضات والمدارس. توصلهم في الوقت المحدّد، ثم تعود لأخذهم.. وعلى الرغم من انشغالها في أعمالها المنزلية التي لا تنتهي، صارت تشعر بوطأة الفراغ والغربة بعد ذهاب أولادها إلى المدارس، خاصةً وأن زوجها كثير الأسفار. تقرأ أحياناً، وتستمع إلى الموسيقا أحياناً أخرى، لكن شعورها بوطأة الاغتراب بات فجوة، راحت تتسع، وتتسع مع الأيام، وتقضم شيئاً فشيئاً حياتها، كلما كبر أولادها، وانصرفوا عنها، منشغلين بفروضهم المدرسية، ورحلاتهم وأنديتهم.

بين الحين والآخر، تصلها رسائل من والدتها في دمشق، أو من شقيقاتها وأشقائها الذين توزعوا بين قطر والسعودية، رسائل عادية، نمطية، تقتصر على السلامات وبعض الأخبار العائلية، وعلى الرغم من ذلك تنعشها، وتعيد لها التواصل مع عالمها.. لكن بين فترة وأخرى، تستوقفها رسائل قادمة من والدتها، لها طعم آخر، ونكهة غير مألوفة.. تكسر النمط الاعتيادي الآسن، فكانت تلك الرسائل كمن يلقي بحصاة صغيرة في بركة أيامها الراكدة، ليحرّك الشجن.. والذكريات الغائمة.. حيّرها أمر هذه الرسائل، لعلمها بأن والدتها أميّة، تطلب عادةً من الآخرين أن يكتبوا لها رسائلها.. فمن هو كاتب هذه الرسائل؟!

لم ترغب في سؤال والدتها مباشرةً، خوفاً من أي تأويل خاطئ، لكنها أدمنت انتظار هذه الرسائل، التي حرّكت فيها عطر رائحة خفية، كامنة بين ضلوعها.. تذكّرها بنقاء.. وبساطة وصدق أيام خلت.. وتفجّر في داخلها شلال حنين وشجن لحكايات ومشاعر طواها النسيان!.

هالها أن تنقطع تلك الرسائل فجأةً، وتعود نغمة الرسائل

التقليدية، المضجرة، كطبخة بائتة. فأرسلت إلى والدتها تستفسر: لماذا انقطعت تلك الرسائل ومن الذي كان يكتبها؟!

أخبرتها والدتها: «أحمد ابن خالك صالح».. لكنها أخفت عنها أنه التحق بالفدائيين، وهو قابع الآن في غياهب السجون الإسرائيلية، مطوقٌ بثلاث مؤبدات.. لم تخبرها، حتى لا تؤذي مشاعرها من جهة، وخوفاً عليها من جهةٍ أخرى (هذه أمريكا)، لكن الأمر أقلق رشا، ولم يعطها تفسيراً لانقطاع تلك الرسائل، فأرسلت إلى والدتها مرةً أخرى لتعرف أسباب انقطاعه عن كتابة الرسائل، فردت عليها: «لقد سافر إلى بلدٍ أجنبي سفرةً طويلة، ولا نعرف عنه شيئاً».

شعرت رشا بحاستها السادسة، أن في الأمر شيئاً ما خفياً، لا يريدون أن تعلم به. طلبت من والدتها أن ترسل لها عنوانه، لأنها تريد التواصل معه، فجاءها الردُّ غامضاً، الأمر الذي عزّز إحساسها الداخلي، بأنهم يخفون عنها شيئاً ما حوله. بعد فترةٍ قررت السفر إلى سوريا لزيارة والدتها في دمشق. اجتمعت العائلة حولها، وجاء خالها صالح ليسلّم عليها. كانت تكنُّ له مساحة خاصة من الحب والاحترام. قبل أن تسأله أي سؤال عن أحواله، وأحوال العائلة قالت له: «كيف أحمد..؟!».. صمتَ الجميع، ونظر صالح في عيني شقيقته.. ثم نظر في عيني رشا التي كانت تنتظر الإجابة وهزّ برأسه: «أحمد أسير عند الإسرائيليين»..

طفرت دموعٌ حارة من عينيها الصافيتين كنبع حنان.. وتلفتت إلى والدتها بغضب: «ليش ما خبرتيني..؟!».

أحمد ذاكرة الطفولة البكر.. وربيع الشباب.. ذاك الصفاء النقي الرقراق، قبل أن يسرقنا خريف العمر والأحزان. ضمير الوطن المعلّق على أهداب سارية تعصف بها الريح. ذاكرة العذاب واللجوء.. والطفولة القاسية على سطح مدرسة «الأليانس». قيظ الصيف، وزمهرير الشتاء.

رائحة دهاليز قصر شمعايا النفّاذة، التي تحولت في المنافي البعيدة إلى عطر حنين. آه كم أشعر بالخزي، ووخز الضمير. هو لم ينسَ، بينما تهنا في شوارع العالم، نبحث عن الثروة، والحياة الرغيدة المسترخية، لكأننا لسنا نحن.. ننظر إلى وجوهنا في المرايا ونبتسم مطمئنين. لا نعرف إذا كنا هنا.. أم هناك..

هكذا فكّرت بينها وبين نفسها، في رحلة عودتها إلى الولايات المتحدة، محمّلة بالأحزان، ووخز الضمير. شعرت أنها غريبة، تائهة في عالم ليس لها، بلا هوية، ولا جذور. لم تعد ثروة شاهر تعني لها شيئاً، ولا تلك الأضواء والساحات، والشوارع الفسيحة، والأبنية الفارهة.. والمخازن الضخمة والسيارات الحديثة، والإيقاعات السريعة التي تضجُّ بأضواء الإعلانات الملوّنة.. والماركات العالمية المسجّلة.. لقد تضاءل في عينيها كل ما كان يبدو لها نتاج الحضارة الغربية، التي خطفت بصرها، وأعمتها عن البديهيات الأولى، التي كانت مصدر جمالها، وتألّقها وفرادتها. شعرت أنها مجرد امرأة ملوّثة، فقدت في غفلةٍ عنها، طهارتها، تنام في سرير ليس لها، رائحة شراشفه المجعلكة تثير في نفسها الغثيان، وتعمّق إحساسها بالخطيئة.. يا لها من معضلة كبرى، بحاجة إلى الهدم، وإعادة البناء، فهل تقوى على مواجهة ذاتها.. والعالم من حولها؟!

كيف لها أن تعيد صياغة علاقتها الآثمة بشاهر، ولها منه ولدان وبنت؟! راح القلق والتفكير المستمر، ينهش استقرار حياتها الراكدة، التي عصفت بها الرياح، ودوامات الأسئلة المحرّضة، التي لا تجد لها أجوبة مطمئنة. تعيد لها الشعور بالسكينة والسلام الداخلي.. حاولت أن تجد وسيلةً ما للمصالحة مع ذاتها.. حاولت أن تنسى، وترضى بهذا القدر الذي فُرض عليها.. لكنها كمن كان يراكم الرماد فوق جمر متقد.. تكفي إشارة ما، أو ذكرى عابرة، لكي تخربط كيانها من جديد، فتشتعل

العواصف في داخلها، وتعيدها إلى دوامة البدايات. حاولت أن تجد حلولاً توفيقية، تهرب من خلالها إلى الأمام، لتغطي فجوة الفراغ، المحرّضة على الهواجس والذكريات، ففرضت على زوجها أن يفتح لها محلاً لبيع «الهدايا والتذكارات»، لعلّها تدفن فيه ذكرياتها الممضّة. انغمست في أعمال المحل معظم وقتها، تشتري أعمالاً يدوية، وتحفاً من الهنود الحمر، التي شعرت وكأنهم أشباه أسلافها.. يحفرون آلام أرواحهم التائهة.. وحكاياتهم الحزينة على تذكاراتهم: تعاويذ ضد الشر، تجلب الحظ والخير والحب لمن يرغب في اقتنائها.. إنها ليست مجرد تذكارات، بل هي حكايات شعب واجه حملات الإرهاب والإبادة، فأصرّ على استعادة هويته.. على شكل تذكارات وتعاويذ، تروي رحلة الآلام..

شعرت رشا أن هؤلاء البشر بتعاويذهم، يشكلون توأم روحها.. وسيرتهم هي الأقرب إلى سيرة شعبها، الذي يعيش المخاض ذاته.

فكّرت: لماذا لا أدمج بين تذكاراتهم.. وتذكاراتنا: حبّات السبحة من شجرة زيتوننا المقدّسة، وأيقونات بيت لحم وكنيسة القيامة.. قبة الأقصى ونحاسيات أجدادنا.. الثوب الفلسطيني بمطرزاته وألوانه، التي تحكي غرزاته حكايا العذارى الفلسطينيات في الجليل والقدس وحيفا وغزة.. حكاية العرس الفلسطيني وأهازيجه.. الكوفية والعقال التي تذكرني بخالي صالح.. رمز هويتنا الضائعة..

هذه الفكرة، أعادت لرشا شيئاً من الطمأنينة والسلام الداخلي.. إذ يمكن أن تجني منها بعض العائدات التي يمكن أن تتبرع بها لأسر الشهداء والأسرى من أبناء وطنها.. هكذا فكّرت، وصمّمت على تنفيذ فكرتها. طرحت الموضوع على زوجها شاهر الذي يعرف عنادها، لكنه هذه المرة رفض مسايرتها، لأنه يعلم علم اليقين، ماذا يعني الخوض في هذه المسارات، التي قد ترسم إشارات استفهام حولهما تهدّد مصالحه..

ولكي يرضيها قال: بإمكاننا أن نتبرّع سراً بمبلغ من المال لجمعيات خيرية، تعنى بأمر الشهداء والجرحى والأسرى.. دون أن تخوضين بنفسك بمثل هذه الأعمال التي قد تثير الشبهة من حولنا.

ردّت: المسألة ليست مجرد عمل خيري، بل هو موقف، وقضية، أنتمي إليها. لقد سرقنا الزمن، وضعنا، أرجوك لا تقف عائقاً في وجهي. خاض شاهر نقاشات حامية معها. سايرها أحياناً، وهدّدها بالطلاق أحياناً أخرى، لكنها ظلّت مصرّة إصراراً عنيداً على موقفها، فأذعن للأمر على مضض.

قرّرت القيام بجولة إلى دمشق وعمان وبيروت، لجمع ما يمكن جمعه من تحفٍ ومطرزات، والاتفاق مع بعض الجمعيات والمشاغل لتزويدها بما تحتاجه، ثم عادت أدراجها إلى الولايات المتحدة، ولم تكتفِ بعرض ما جلبته معها في مخزنها، بل تطورت الفكرة إلى تأسيس جمعية لنساء الجالية الفلسطينية والعربية هناك، وصارت تنظّم معارض وحفلات، تعرض خلالها المطرزات.. ومنتوجات الفلكلور الفلسطيني.. لتجمع التبرعات على شكل مزادات، تشرف عليها نسوة الجمعية.. وفتحت من أجل ذلك حساباً مصرفياً خاصاً. لاقت التجربة الكثير من الإقبال والصدى الإيجابي في صفوف الجالية العربية، وخاصة في شهر رمضان والمناسبات والأعياد، الأمر الذي فتّح عليها عيون المنظمات الصهيونية، التي راحت تحاربها بالخفاء والعَلَنْ، فشعر شاهر بخطورة وجدّية المسألة التي تهدّد مصالحه، فأخذ موقفاً صارماً من رشا، وكاد أن يقع الطلاق بينهما فعلاً، وخافت أن يفرض عليها السفر خارج الولايات المتحدة، بطريقةٍ ما، ليفصلها عن أولادها. شعرت بالكراهية الشديدة نحوه، وبالقهر لضعفها، واكتشفت أن هامش حريتها محدود، وأقل بكثير مما كانت تظن.

انكفأت بعد هذه التجربة، على نفسها، تجترُّ أحزانها، وذكرياتها. شعرت أنها وحيدة، مكسورة، ومجبرة على مسايرة الدنس الذي يسكن فراشها البارد، فيما روحها التائهة راحت تهيم، محلّقة خارج المكان.. فيما انطوى جسدها الهامد على ثناياه.

راحت تنظر بعين جديدة إلى ولديها: عامر.. وسامر.. وابنتها هالا.. كانت هالا الأقرب إلى روحها.. لا تدري لماذا؟! اعتاد عامر أن يسافر إلى بيت جدّه في السعودية في العطل الصيفية، وكان والده يصرُّ عليه أن يتعلّم اللغة العربية وأمور دينه، بينما رفض سامر أن يعيد الكرّة بعد أول مرة سافر فيها إلى السعودية، حاول شاهر بكل الوسائل إقناعه بمرافقة شقيقه، لكنه رفض بعناد شديد، لأنه لم يستطع التأقلم مع العادات والتقاليد هناك، بأي حال من الأحوال.

بذلوا في البيت جهوداً كبيرة لكي يتعلّم الأولاد لغتهم الأم.. تقدّم عامر في دراسة اللغة العربية والتمكّن منها، بحكم سفره الدائم إلى السعودية، على عكس سامر وهالا، اللذان تعلّما المحادثة بالعربية، لكنهما لم يتقناها قراءة وكتابة.

اقترحت رشا على سامر أن يسافر إلى دمشق، ويلتحق بمعهد تعليم الأجانب اللغة العربية، فوافق على الاقتراح. بقي عدة أشهر، تحسنت لغته العربية خلالها.. وكانت تنتظر أن تكبر هالة قليلاً لتسافر أيضاً إلى هناك مثل شقيقها..

مرّت السنوات بطيئة، ثقيلة الوطأة على رشا، التي شعرت بنفسها ضعيفة، لا تقوى على مجابهة شاهر، الذي راحت الهوّة بينه وبينها تتسع. عاشا نوعاً من التواطؤ الداخلي.. ونوعاً من المساكنة الباردة، يربطهما الأولاد.. والمظاهر الخارجية، إذ يصر شاهر أن تكون إلى جانبه في بعض المناسبات التي لها علاقة «بالبزنس». سيدة أنيقة، خفيفة الظل.. وباهرة

الجمال، حافظت على رشاقتها ولطافة حضورها الأخّاذ.. كانت الأجواء بينهما تتوتر، وتغلفها الغيوم عندما ترفض أحياناً أن تذعن لرغبته، بحضور مناسباته.. وأحياناً تسايره على مضض لاعتبارات عديدة.. وهكذا ظل النوسان والتذبذب يحكم علاقتهما. خفف من وطأة هذا الاحتكاك.. هجرة شقيقاتها وبعض أشقائها إلى الولايات المتحدة، ليكونوا بالقرب من أولادهم الذين التحقوا بالجامعات الأمريكية. إحدى شقيقاتها سكنت في نفس الولاية، فصارت قريبة منها، تقضي الكثير من الأوقات إلى جانبها.. والأخريات توزعوا في ولايات أخرى، كانت تجمعهم المناسبات والأعياد، فإما أن تسافر رشا وأولادها عندهم، أو العكس.. هذا الأمر خفف على رشا غربتها، وشغلها بكثير من الأمور العائلية التي تتعلّق بأولاد أشقائها وشقيقاتها ومشاكلهم مع صعوبة التأقلم في المجتمع الأمريكي. فهي بحكم خبرتها الطويلة هناك، كانت تجد لهم الكثير من الحلول والمخارج التي لا تخطر في بالهم. فيما بعد استقرت معظم عائلة رشا في الولايات المتحدة، فكانت هذه الهجرة هي هجرتهم الثالثة، بعد هجرة النكبة الأولى إلى سوريا، وهجرتهم الثانية إلى دول الخليج.

فسحة ضوء

اشتعل الأمل مجدداً، بإطلاق سراح أحمد، وعدد من الأسرى والمعتقلين الفلسطينيين في العام 1985.. على إثر مفاوضات سرّية - عبر وسطاء دوليين - بين الفدائيين وإسرائيل، لمبادلة ثلاثة جنود إسرائيليين ببعض الأسرى والمعتقلين الفلسطينيين، وبالفعل تمت عملية التبادل بعد مفاوضات شاقة، تخلّلها الكثير من العقبات، وكان أحمد في عِداد من أُفرج عنهم في تلك العملية.

امتلأ قصر شمعايا، بالزينات والأضواء، واللافتات، واشتعلت الدبكات والأهازيج في حارة اليهود، بانتظار استقبال أحمد ورفاقه الأسرى المفرج عنهم.. تماماً كما اشتعلت الأفراح في كل المخيمات الفلسطينية.. تدفق المئات إلى مطار دمشق.. بانتظار وصول الأسرى.. وكانت على رأسهم فاطمة الحسنين، التي بُحَّ صوتها من الأهازيج والأغاني التي ردّدتها، ومن ورائها الجموع المحتشدة.

فُرض طوق أمني شديد على المطار، لفرض النظام، وبصعوبة سيطروا على الجموع المنفعلة بالحدث. أحد رجال الأمن تصرّف بجلافة.. كان يبعد الشبان عن الحاجز بقسوة. التقطت عيون فاطمة الصقرية تصرّفه، الذي لم يعجبها، وكعادتها كانت تقف على الأوّل، في رأس الدبكة.. في الدورة الثانية اقتربت منه، وبحركة رشيقة، اختطفت قبعته ووضعتها على رأسها، وأكملت دورة الدبكة.. فوجئ الشرطي

بتصرفها، لكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً.. وفي الدورة التي تلتها، حاول أن يستعيد قبعته، فشدته من حزامه بشكل مباغت ودفعت به إلى حلقة الدبكة.. شبّكت يدها بيده وراحت تدبك، وبين الدهشة، والانفعال والصخب.. تبدّد غضبه، وعلا الصراخ والضحك.. فاندمج بالجو، وراح يدبك مع الشباب متناسياً المهمة التي جاء من أجلها.

مرّت عملية إطلاق سراح الأسرى والمعتقلين.. بإجراءات أمنية معقدة جداً.. وجرى التبادل في أحد المطارات الأوروبية.. وكان هناك تخوفات شديدة من خديعة ما ربما تجري في اللحظة الأخيرة.. بتواطؤ مع أحد الأجهزة الأمنية الدولية، لذلك بقيت الأعصاب مشدودة، ومتوترة إلى أقصى حد، واتُخذت إجراءات احتياطية كثيرة، لكن العملية تمت في نهاية المطاف بسلام.

لم نصدّق أن أحمد بيننا، بعد كل هذه السنوات الطويلة على اعتقاله، حينما وصل كان هو والأسرى الآخرين في حالة من التعب والإعياء الشديدين، بسبب قلّة النوم، والتوتر، والإجراءات الأمنية المعقدة التي تعرضوا لها أثناء عملية انتقالهم من إسرائيل إلى أحد المطارات الأوروبية.. ومن ثم وصولهم إلى مطار دمشق..

لقد استغرقت رحلة معاناة الأسرى يومين تقريباً، لم يستطيعوا خلالها النوم أو الأكل. في صباح اليوم السابق لإطلاق سراحهم، ومنذ ساعات الفجر الأولى استيقظوا على أصوات حركة غير طبيعية داخل السجن. أصوات فتح أبواب الزنازين وإغلاقها، وأصوات حركة السجانين المتوترة في كل أنحاء السجن. قال أحمد: لاحظنا دخول عدة حافلات لشركة «إيجيت» الإسرائيلية إلى باحة السجن الخارجية. بعد ذلك بقليل بدأت الإجراءات.. دخلت مجموعة من حراس السجن معهم قوائم بالأسماء، فتحوا علينا باب المهجع. قال المسؤول بينهم: من يُذكر اسمه عليه أن يخرج..

أضاف أحمد: لم يخطر في بالي من قريب أو بعيد أن اسمي وارد في القائمة، هل هو نوع من التشاؤم؟! لا أدري.. لذلك بوغت بشدة عندما ذكروا اسمي. خرجت مع من خرج. كانوا يضعون العصبة على عيوننا، والكلبشة بين أيدينا، ويسوقوننا إلى القاعة المخصّصة للزيارة خلف الشبك، حيث كان ينتظر الأهل عادة لزيارة أبنائهم. كل ذلك جرى في ساعات الصباح الأولى. تجمعنا من كل المهاجع والزنازين في هذا المكان، ثم أغلقوا علينا الأبواب وذهبوا. مرّت ساعات طويلة دون أن نلمح سجّاناً، ولم يقترب أحدٌ منا. مضى النهار كله على هذه الحالة، دون أكل أو ماء. بعضنا أراد أن يقضي حاجته. قرعنا الأبواب أكثر من مرة، فكانوا يردون علينا بالشتائم اللاذعة من بعيد، البعض لم يستطع أن يتحمّل، ففعلها في زاوية من زوايا المكان. مع غياب الضوء بدأت الحركة من جديد. أخرجونا واحداً واحداً. الكلبشات خلف الظهر، والجنازير في القدمين، والعصبة على العينين، وكل إثنين من الحرّاس قادوا أسيراً باتجاه «البولمانات» الواقفة. كان الصعود إلى البولمان في هذه الحالة، بحدّ ذاته، وسيلة إضافية للتعذيب. بعد الصعود إلى الحافلات كنا نظن أننا سنجلس على المقعد المخصّص لكل واحدٍ منا. فوجئنا بالحرس يقولون لنا: انبطح بين المقعدين، بينما جلس الحارسان على المقعد وأرجلهما على أجسادنا، وكلما حاول أحدنا رفع رأسه كانوا يشبعونه باللكمات والشتائم المقذعة.. وهكذا حتى وصلنا بعد ساعات إلى مكان هو ربما معسكر، أو قاعدة عسكرية إسرائيلية، فنحن من خلال هذه الرحلة لم نستطع أن نحدّد الاتجاهات، وبقينا مثل تائهين غارقين في الظلام.

أنزلونا في هذا المكان بنفس الطريقة، ووضعونا في قاعة فارغة تماماً، وبقينا طوال الليل دون أن يسمحوا لنا بقضاء حاجاتنا، وبدون طعام أو ماء. ولكم أن تتخيلوا الحالة التي كنا عليها. في صباح اليوم

التالي نُقلنا إلى المطار بحراسة مشدّدة، وعوملنا بالطريقة نفسها إلى أن وصلت الطائرة إلى مطار أوروبي، فكانت لحظات عصيبة من الصمت والتوتر إلى أن تمت عملية التبادل.

في اللحظة التي توقّف فيها هدير محركات الطائرة في مطار دمشق، عمّ صمت مترقّب أرجاء المطار.. توقف الجميع وعيونهم معلقة على تلك الطائرة. أول أسير أطلّ من باب الطائرة ولوّح بيديه، فجّر عاصفة من التصفيق والصفير والصراخ، ثم عمّ الصمت ثانيةً إلى أن نزل الأسير درجات السلم، ثم سجد على الأرض وقبّل ترابها. تبعه الأسرى الآخرون واحداً تلو الآخر. كلٌّ منهم كان يقف إلى جانب الآخر ويسجد، ويقبّل الأرض في لحظةٍ جليلة من الصمت والترقب، واللهفة.. إلى أن اكتمل المشهد، فتعالت الزغاريد، والهتافات.. واختلط الفرح بالدموع، والعناقات مرة أخرى..

وصل أحمد ورفاقه الأسرى إلى الحارة محمولين على الأكتاف في عراضات دارت بهم في أزقة الحارة.. وأمام قصر شمعايا.. تحيطهم الدبكات والأهازيج، وزغاريد النساء ودموعهن.

أُغمي على والدة أحمد أكثر من مرة، ولم تعد قدماها قادرتان على حملها. بقيت أنا وفواز وشقيق أحمد إلى جانبها.. وخفنا أن لا يتحمّل قلبها هذه الجرعات المكثّفة من الانفعالات. حاولنا بكل الوسائل تهدئتها، وأعطتها شقيقة أحمد سميحة، التي أضحت ممرضة في أحد مشافي الهلال الأحمر الفلسطيني إبرةً مهدئة. كنا جميعاً: أسرته وأصدقاؤه، وجيرانه.. في حالة قصوى من الفرح والقلق والانفعال.. وخاصةً أسرته التي عاودها الأمل بعد سنوات من الحزن والانتظار.

تدفق المهنئون من كل صوب، بينهم أهالي الشهيدين، اللذين سقطا في العملية التي قام بها أحمد ورفاقه.

كان اللقاء معهم، من أصعب اللحظات التي واجهها أحمد.. حكى لهم عن حيثيات العملية، وما جرى معهم بالتفصيل، وامتزج اللقاء بدموع الفخر والحزن والتسليم بمشيئة الله.

لم تكن مرحلة ما بعد إطلاق سراح أحمد، ورفاقه سهلة على الإطلاق. فبعد سنوات طويلة من الاعتقال، شعر أن كل شيء من حوله قد تغيّر، وعليه أن يعيد اكتشاف الأشياء، والتأقلم معها من جديد، وبالتالي عليه أن يعيد ترتيب أولويات حياته.. وفي المختصر كان أمامه شوط كبير، لا بدّ أن يخوض في معارجه، ويواجه تحدياته، خاصة وأن نظرته، ومعاييره للأشياء اختلفت، فقد علمته سنوات التجربة في المعتقل، الانتباه لكثير من المسائل الحياتية التفصيلية، التي لم يكن يقيم لها وزناً في السابق، إذ بات أكثر نضجاً، وتأملاً، وفهماً لذاته وللعالم المحيط به، وباتت نظرته للأشياء أقل يقينية.. وغير حاسمة، لكن وعيه السياسي أصبح أكثر تجذّراً.

من المسائل القاسية التي واجهها مع رفاقه الأسرى، وكان لها ظلال سلبية عليهم، معنوياً وإنسانياً، على الرغم من تفهمهم لأبعادها وخلفياتها، شعورهم أنهم باتوا في موضع الشك، على الرغم من كل تضحياتهم. حيث لم يكن من السهل إعادة الاعتبار لهم، والثقة بهم مجدّداً، دون أن يمروا بفترة زمنية من التجربة والاختبار، تخلّلتها المساءلة حول ظروف التحقيق معهم في إسرائيل، ومسيرة كل واحد منهم داخل المعتقل.

ثمة مسألة أخرى، كانت جاذبة للانتباه، وهي ظهور أمراض عضال بينهم، راحت تفتك بهم الواحد تلو الآخر، وكان هناك تكهنات حول دور ما للأجهزة الأمنية الإسرائيلية في بروز هذه الظاهرة، وشكوك حول دس مواد سمّية (بطيئة التفاعل) لهم في الماء الذي قدموه لهم في الطائرة بعد يومين من العطش، كان ماءً لزجاً، طعمه غريب. بعض الأسرى بصق

الجرعة التي تناولها والبعض الآخر شربها لأنه لم يقوَ على احتمال العطش.

سرت شائعة قوية بين الأسرى والمعتقلين آنذاك، حول احتمال أن يضعوا لهم مواد سامة في طعامهم، فامتنع البعض عن تناول أطعمة السجن لعدة أيام، بينما لم يأخذ البعض الآخر المسألة على محمل الجد، في حمأة الانفعال الشديد، والفرح بقرب الإفراج عنهم. أكّد ظهور الأمراض المستعصية، التي تفشّت بينهم - فيما بعد - صحّة ذاك الاحتمال، لكن لم يُعرفْ فيما إذا كان السبب هو الطعام، أم الماء الذي تناوله البعض في الساعات الأخيرة.

زغروطة فرح!

حينما زفّوا لرشا خبر إطلاق سراح أحمد عبر الهاتف زغردت بشكلٍ غريزي، كما تفعل أمها، أو جدّتها أمام أي خبر سعيد، مفاجئ، بعد مكابدة محنةٍ مؤلمة، امتدت لفترة طويلةٍ من الزمن، لكأنها استعادت شيئاً مفقوداً من روحها. نظر إليها شاهر نظرة باردة، مؤنّبة، دون أي تعليق، لكنها فهمت الرسالة، لكأنه أراد أن يقول لها: لِمَ كل هذا الانفعال.. ولِمَ هذه الطريقة في التعبير عن فرحكِ؟!

اغتالت نظرته المتعالية لحظة الفرح التي اجتاحتها.. وأعادتها إلى صحراء حياتها.. وغربتها، على الرغم من أنها، هي نفسها، دُهشت لردة فعلها العفوية على النبأ، فهي لم تزغرد، أو تسمع زغاريداً خلال كل سنوات غربتها الطويلة في أمريكا، فكيف استعادت في لحظة مباغتة هذا المخزون الكامن في أعماقها، وعادت إلى سيرتها الأولى: بنت بلد أصيلة.. مثل أمها أو جدتها، امرأة نقية، طاهرة، ترفرف روحها بكل بهاء: زغاريد فرحٍ شعبي عارم في لحظة إشراقٍ، أو انتصار، بعد طول انكسار؟!

كانت رشا في تلك اللحظة في حالةٍ من التوثّب والقوة، تمكّنها أن تنفجر زلزالاً مدمّراً في وجه شاهر، لو أنه فقط، نطَقَ بكلمة واحدة بشكلٍ صريحٍ وواضح.. لكنه اكتفى بتلك النظرة الباردة، والنظرة قابلة لأكثر من تأويل، وهي تعلم أنها لو واجهته بها، لانسحب وخطّأها - كما يفعل عادةً -: «أنتِ تفسرين الأمور كما تشائين.. أنا لم أقصد ذلك».

تمنّت من أعماقها، لو أنه باح بما يجول في ذهنه، لكنه لم يفعل. هو هكذا، مثل الهيولى، لا يمكن التقاطه بسهولة لأنه قابل للانزلاق والتحوّل، حسب ما يقتضيه الموقف.

حزمت أمرها على السفر إلى سوريا، لكي تهنئ أحمد، وأسرته بإطلاق سراحه، وأبلغت شاهر بما تعتزم القيام به، ومن نظرتها الحازمة التي تشعُّ توهجاً وتصميماً، عَرفَ أن هناك عاصفة يمكن أن تنفجر في وجهه، وتحطّم كل من يعترضها، لذلك التزم الصمت، ولم يعلّق سلباً أو إيجاباً. انتظرت ردّه وعيناها منغرزتان على تعابير وجهه، التي يحسن إخفاءها.. وبعد برهة اخترقت حاجز الصمت: «إيه.. شو قلت؟!».

حاصرته ذبذبات التحدّي الصارم، التي راحت تبثّها بنظراتها.. وكلماتها المختزلة.. الثابتة، فلم يستطع التهرّب، أو المناورة.. قال: «ما بعرف.. أنتِ حرّة.. إذا كنتِ شايفة الوقت مناسب؟!».

قالت: «مناسبٌ جداً.. إنتِ مشغول بأعمالك الكثيرة.. والأولاد في المدارس».

هزّ كتفيه.. «كما تشائين»!.

خلال أيام، اشترت هدايا.. وحزمت حقائبها.. وحجزت في أقرب رحلة.

لم يصدّق أحمد، أن رشا بلحمها ودمها تقف أمامه، بعد سنوات العتمة والألم: أغنية جميلة.. دافئة، تنشر الفرح واللطف من حولها. أعادهما اللقاء إلى سنوات البراءة الأولى.. فاغتسلا بطهر أحلامهما النقية، التي اغتالها الزمن بوحشة الاغتراب، وظلام المعتقل.

شعر كلٌّ منهما أن ذاكرته باتت مثقوبة، بفعل تقرحات التجارب المريرة التي مرّت عليهما، فراحا مثل طفلين فرحين، يرمّمان ندوب هذه

الذاكـرة، ويسـتعيدان الحكايـات.. والمواقـف، والمفارقـات والطرائـف، ويضحكان، كما الأيام السالفة.. ذاك الضحك الطليق.. الصافي.

حدّثها عن سنوات العتمة.. وذاك الصمت الفولاذي، المريب الذي خيَّم على حياته طوال تلك السنوات، بعد أن استنفد هو ورفاقه المعتقلون حكاياتهم، التي تبادلوا روايتها لبعضهم البعض عدة مرات، حتى باتت مادة لسخرياتهم من بعضهم.

حدثها كيف كان يستعيد ذكريات طفولته في بيتهم في حي الأزبكية، ومائدتها الشهية التي كانت ذكراها شرفة ضوء في عتمة ليله.

حدثها كيف كانت تلك الذكريات تشحن طاقة الحياة في داخله، كلما حاصره اليأس، عندئذ يبتسم، ويستعيد الأمل بالضوء، ويقول لنفسه: مقاومة الجلاّد في هذه الظروف هي الحفاظ على الصحة الجسدية والنفسية. يريدون هزيمتنا من الداخل.. إذاً الرد، أن نحافظ على التوازن الداخلي، ولم يكن لدينا من أسلحة، أو أدوات للحفاظ على هذه الصحة، سوى شحن ذاكرتنا بكل ما هو مضيء.. ونبيل في حياتنا، لأن أخطاءنا، وسلبياتنا وضعفنا كانت في صفّ الجلاد.. تفعل فعلها في تدمير ذاتنا.

وحدثته عن شعورها المزمن بالاغتراب، وحنينها الممض إلى ذاك النقاء الذي فقدته في مدن العالم الصاخبة بالضجيج. حدثته عن الفجوة التي بدأت تتسع بينها وبين شاهر الذي حوّلها إلى ديكور خارجي بلا روح، مهمتها مرافقته في سهرات «البزنس» مع رجال أعمال لعقد الصفقات. حدثته عن شروخ روحها المؤلمة التي لا تجد الهدوء أو الطمأنينة حتى بين ولديها اللذين لم تعد تتعرّف إلى صورتهما، لأن كلاً منهما أخذ منحىً غريباً في سلوكه وأفكاره ومظهره في غفلةٍ عنها، وشعورها بالخوف منهما، وعليهما، لأنها فقدت السيطرة عليهما، أو

القدرة على التأثير في مسارهما بعد أن صار لكلٍّ منهما جناحان يطير بهما في الفضاء الذي صاغه، وتأثّر به.

قالت له والدموع تتفجر من عينيها: حاولت بكل السبل أن أزرع فيهما شيئاً من روحي، لكن تأثيرات المحيط كانت أقوى من كل محاولاتي التي باءت بالفشل. وحدها هالا ابنتي ظلت واحة روحي الدافئة التي أجد فيها بقايا أشلاء صورتي التي هشمتها صحاري الزمن.

أنا غريبة.. ووحيدة.. وتائهة.. وخائفة على عامر وسامر، لأنني لا أعرف أين سيمضي بهما الطريق؟! هما من الآن، لا يتعرّفان على بعضهما، وبالكاد ينسجمان، حتى في أبسط الأمور الصغيرة التافهة، يختلفان في كل شيء، وحول كل شيء.. في اللباس والمظهر، وتسريحة الشعر، وأنواع الطعام التي يحبانها، والموسيقا، ورائحة العطر، والسلوك الاجتماعي.. يختلفان في كل شيء.. كل شيء وكأنهما ليسا شقيقين ترعرعا في أحشائي؟!

وضعت رشا يديها على رأسها وأطرقت بالتفكير، ثم نهضت من مكانها وقالت بأسى: لم أستطع منع شاهر من إرسال عامر منذ صغره كل سنة في العطلة الصيفية إلى بيت جدّه في السعودية، كانت ذريعته الدائمة ضرورة أن يتعلّم الأولاد أصول لغتهم ودينهم، ولم يخطر في ذهني أنهم سيزرعون فيه بذور نبتةٍ ستنمو أشواكها لتنغرز في قلوبنا وعيوننا، وتبعد المسافات بيننا وبينه، ولولا أن سامر رفض الإذعان لرغبة أبيه في السفر إلى المملكة منذ طفولته، لكان الآن مثل شقيقه، إلاّ أنني غفلتُ عنه أيضاً، وبدأت أشعر أنه في الآونة الأخيرة لم يعد يشبهني بشيء. غرق بالأندية، والديسكو، وعلب الليل والرحلات المدرسية، والوجبات السريعة، وكلما وجهت له ملاحظة ينظر إليّ شزراً ويقول: هذه حريتي الشخصية.. لا تتدخلي بها.

هالا الوحيدة التي حافظت على نقاء روحها، وهذا ربما ليس بفضلي.. هي هكذا غريزياً. دائماً تلجأ إليّ كلما واجهتها مشكلة. تبوح لي بأسرارها وتطلب مشورتي وتصغي إليّ. لا تسألني أين سيفضي كل هذا بنا؟! أنا لا أعرف. كل ما أعرفه أنني خائفة.. وتائهة.. وقلقة مما يضمره الزمن!

مجرد أوهام

على الرغم من سنوات الغربة الطويلة التي عاشها أبناء أبو محمد الطبراني في بلاد الشمال السكندنافي، فقد ظلوا على هامش المجتمع، يشعرون في أعماقهم العميقة أنهم مجرد طفيليات يقتاتون على موائد الغير.. صحيحٌ أن ظروف المهاجرين إلى هناك في ستينيات وسبعينيات القرن المنصرم كانت سهلة، إذ سرعان ما يحصل اللاجئ على معونات حكومية تساعده في بداية هجرته على التأقلم مع المجتمع الجديد، ريثما يتعلّم اللغة، ويجد له عملاً ما في المجالات الكثيرة المفتوحة أمامه، إلاّ أنه يظل يشعر بينه وبين نفسه أنه نبتة غريبة بلا جذور، تنمو في تربةٍ أخرى لا تنتمي إلى تقاليده وتكوينه وثقافته المختلفة، مهما اجتهد وحاول أن يتناسى ذاكرته، ويندمج في محيطه الجديد.

قد تختلف قابليات الاندماج بين شخص وآخر، نظراً لتباين القدرات والإمكانيات العملية والذهنية..، لكن القاسم المشترك بين كل هؤلاء هو الحنين الممض الذي ما برحوا يشعرون به لملاعب طفولتهم، وذكريات بؤسهم، على الرغم من كل تعاساتها، لأنها كانت تعني لهم: النقاء.. والعلاقات الحميمية.. والبساطة.. والطهر الذي فقدوه مع الزمن..

استفد أبناء أبو محمد الطبراني طاقات الشباب في عتمة الملاهي الليلية. جالوا في الحانات، وتذوقوا كل أنواع الصخب والشهوات،

وحينما أزَفَ خريف العمر شعروا بزيف حياتهم وعدم قدرتهم على المصالحة مع ذاتهم.

لم يشعر الابن الأكبر محمد الذي تزوج فتاة دانماركية، وعاش معها حوالي عشرين عاماً، وأنجب منها ثلاثة صبيان بالانسجام مع ذاته في يومٍ من الأيام، ربما لإحساسه العميق، الذي ما برح يخفيه بكل الوسائل أمام تلك المرأة، التي كانت عوناً له على الاندماج في مجتمعها، أنه لا ينتمي لها، ولا تنتمي إليه. ظل دائماً يشعر أن هناك فجوة ما بينهما من الصعب عليه ردمها، لكي يحس أنه هو هو، وليس شخصاً آخر تقمّص شخصيته. هذه الإزدواجية بين ظاهره وباطنه راحت تتفاقم مع السنوات، وتتجلّى في سلوكيات نافرة أحياناً تعكّر صفو حياتهما. لقد أتعبته هذه الحالة على الرغم من سخطه على ذاته، لأنه لم يستطع السيطرة على إزدواجيته، والتحكّم بسلوكه، وقد اقتنع في نهاية المطاف أن لا حلّ أمامه سوى الانفصال عن هذه المرأة، التي كانت له الضوء في عتمة سنوات اغترابه الأولى.

بعد أكثر من عشرين عاماً، طلب محمد الطبراني من والدته أن تبحث له عن فتاة فلسطينية من بيئته، لكي يقضي معها بقية عمره، متذرعاً بحنينه إلى رائحة الطبخ العربي التي تذكّره بليالي العيد في قصر شمعايا.

كان محمد الطبراني يقول لأشقائه الذين لحقوا به تباعاً ناصحاً: «عيشوا كما يحلو لكم: علاقات صداقة عابرة مع فتيات دانماركيات.. ولكن إياكم الارتباط بعلاقة زواج مع واحدة منهن، لأنكم سوف تكررون تجربة فشلي وآلامها..» وبالفعل كان يعيش كلٌّ منهم علاقات عابرة، ومساكنة قد تستمر سنة أو سنتين مع فتاة ما، وحينما يقرر أحدهم الاستقرار والزواج يطلب من والدته أن تبحث له عن فتاة من بيئته، تلحق

به إلى هناك لكي يكوّن معها أسرته، بيد أن المفارقة الغريبة والمحزنة في آنٍ معاً، هي اكتشافهم أنهم وقعوا في وهمٍ آخر، لأنهم لم يعودوا أنفسهم، بحكم التغيرات التي طرأت على شخصياتهم بعد السنوات الطويلة التي قضوها هناك، إذ سرعان ما راحت تظهر تناقضات من نوعٍ آخر مع زوجاتهم الفلسطينيات، تطورت إلى خلافات مؤذية عصفت رياحها باستقرارهم، الأمر الذي اضطر فتحي إلى الانفصال عن زوجته بعد ست سنوات، أنجبت له خلالها طفلين، أخذتهما معها واستقلّت هناك في مدينة أخرى، ولم يستمر زواج حميد سنة واحدة كانت الجحيم ذاته، وقد تبين أن موافقة الفتاة على الزواج منه أساساً كانت بدافع المصلحة، لكي تستطيع السفر إلى هناك وتحصل على الجنسية الدانماركية، واكتشف محمد مع أول احتكاك له مع زوجته الجديدة ظلام النفق الذي دخل فيه.. وهكذا عاش أولاد أبو محمد الطبراني أوهامهم.. وعندما أرادوا استعادة هويتهم اكتشفوا أنهم أضاعوها منذ ردحٍ طويل من الزمن.

بعد حوالي خمسة وثلاثين عاماً على هجرته عاد محمد الطبراني إلى دمشق في زيارة مؤقتة، مدفوعاً بالحنين إلى ملاعب طفولته وأصدقائه في قصر شمعايا. راح يسأل عن هذا وذاك.. ماذا حلّ بفلان.. وأين صار فلان؟! وبطبيعة الحال اكتشف أن شيئاً لم يبقَ على حاله، باستثناء معالم قصر شمعايا التي أصبحت أكثر تردّياً بعد أن تغيّر معظم سكانه. سأل عن أحمد الشيخ طالب صديق طفولته، وأصرّ على اللقاء به.. كان اللقاء بينهما أشبه بلقاء غريبين لا يعرفان بعضهما، لكنهما وبعد دقائق المجاملات الأولى اشتعلت ذاكرة طفولتهما المشتركة في قصر شمعايا، فتوهّج الدفء، وتدفّق شلاّل الحنين. تبادلا الطرائف وضحكا من قلبيهما.. تذكّرا خصوبة أم العبد، ونباتات عائشة السلمان، وزغاريد فاطمة الحسنين، ومهارات القابلة أم حسين.. وغراميات راشيل وطريوش

أبو جاك. تشعّب الحديث بينهما بين الماضي والحاضر.. تحدّثا عن السفر وعتمة سجون الاحتلال.. عن التجارب المريرة والأحلام التي أفضت إلى سراب، وفي ذروة التوهّج صمتَ الاثنان، وكأن كلاً منهما راح يصغي إلى صوته الداخلي متأملاً. كَسَرَ محمد الطبراني الصمت بالقول: «شو رأيك أدبرلك دعوة للدانمارك.. وهناك بإمكانك الحصول على لجوء لتبني حياتك من جديد؟!»

هزّ أحمد الشيخ طالب رأسه مبتسماً وعلّق: ماذا سأفعل هناك بعد هذا العمر؟ لن أزاود عليك أو على غيرك وأقول: إنني وجدت ذاتي هنا، بل على العكس اكتشفت كم أنني لا أساوي شيئاً في ظل التعقيدات الكثيرة التي نعيشها، لكن بالمقابل ليس لديّ أي وهم في أنني يمكن أن أفعل شيئاً في الخارج. على الأقل هنا لدي واحة ضيقة من الأصدقاء، يمكن أن أبوح أمامهم بأفراحي وآلامي دون خوف أو حَرَج، وهذا أقصى ما أطمح إليه.

انكسار

مرّت سنوات بطيئة على حياة رشا، أرخت بثقلها على إيقاعها اليومي، حيث راحت تتلهى بحل المشكلات التي تواجه أبناء شقيقاتها باعتبارهم مهاجرين جدد إلى الولايات المتحدة، فيما راح ولداها عامر وسامر ينفصلان عنها شيئاً فشيئاً، وكلٌّ منهما شقّ طريقه باتجاه مخالف للآخر. بات عامر بحكم التربية المتزمتة التي تأثر بها في بيت جدّه إسلامياً متشدداً، فأطلق لحيته، وارتدى الزي الإسلامي، وحاول التدخّل بكل الوسائل في حياة والدته وشقيقته هالة. أراد منهما أن تتحجّبا، وتلتزما بالتقاليد الإسلامية الصارمة، وعندما فشل في التأثير عليهما قاطع الأسرة، ومن المفارقات النافرة أنه قبل أن يصل إلى نقطة القطيعة الكلية مع أسرته طلب من والدته أن تخطب له فتاةً من عائلة عربية محافظة تقطن في مدينة عمان الأردنية، كان قد تعرّف على عائلتها خلال واحدة من سفراته إلى المنطقة، وبالفعل سافرت العائلة معه إلى عمان، وتمت الخطبة الرسمية للفتاة هناك، والمفارقة عندما نزلت رشا وابنتها هالة مع خطيبة عامر للأسواق للتبضّع وتجهيز العروس كان مظهرهن الخارجي شديد التنافر. رشا وابنتها هالة تلبسان أحدث الموديلات الدارجة، فيما بدت خطيبة عامر فتاة منقّبة ترتدي الجلباب الأسود الذي لا يظهر حتى عينيها المحجوبتين بنظارات سوداء سميكة.

قالت رشا لأحمد الشيخ طالب عندما التقت به بعد عدة سنوات: هذه اللحظة كانت شديدة الوطأة عليّ. في البداية اعتبرت الأمر عادياً، ومسألة اللباس قضية شخصية لكل إنسان، ومساحة تتعلّق بحريته الخاصة التي لا يمكن اختراقها، أو التدخّل بها، وقبلت الاختلاف على هذا الأساس، واعتبرته أمراً لا يخصني، وافترضت أن الطرف الآخر يقبل بهذه المعادلة ويحترم حريتنا الشخصية، كما احترمنا اختلافه عنّا، لكن المأساة عندما تبيّن لي أن الموضوع ليس بهذه البساطة التي ظننتها، حيث لاحظت كيف كانت النظرات المستنكرة تلاحقنا في كل مكان، وتخترق جسدي أنا وابنتي التي شعرت بنفس الشعور الذي راودني.

كذلك تبيّن لي، أن ذوقي يتناقض مع ذوق وخيارات خطيبة ابني، في كل كبيرة وصغيرة، بل في كل تفصيل من التفاصيل التي واجهتنا، والطامة الكبرى أن ابني في عقليته وسلوكه وفهمه للأشياء لم يكن في صفنا، بل كان منحازاً كلياً للطرف الآخر، الذي شعرت وكأنه يشكك حتى في أخلاقياتنا. كان صعباً عليّ أن يغتالوا فرحتي بابني، وما كان أمامي سوى الانسحاب، لأن حجم الاغتراب الذي شعرت به، فاق طاقتي على التحمّل. كنت أشعر بالغضب والحنق والخسارة، وكأن ابني ليس لي، كأنه جسم غريب عني، لكأنه لم يترعرع في أحشائي، والأنكى من ذلك أنه صار يخجل بنا، عندما زادت همسات خطيبته وأهلها حولنا. بدأت أسمع منه كلمات لم يتجرأ في كل حياته السابقة على البوح بها أمامي، لذلك قرّرت أن أقطع زيارتي وأسافر قبل أن تتم مراسم الزواج. هذه كانت أكبر صدمة في حياتي. لا أعرف لماذا أنبأني قلبي بأنني فقدت ابني الذي لم يعد يشبهني بشيء: لقد كانت تلك التجربة إشارة من الإشارات، إلى أن ابني سار في طريق آخر، لا أدري إلى أين يفضي، لكن إحساسي كان يقول لي: أنه دخل في نفق شديد الظلمة، لن يخرج منه أبداً.

مصيبتي لم تكنْ عند عامر، بل لم أكن أدري أن مصيبة أخرى أشدُّ وطأة تنتظرني مع سامر الذي درس الحقوق في إحدى الجامعات الأمريكية، وتخرج منها بامتياز. كنت أظن أن انغماسه في الحياة الأمريكية، وتشبعه بالثقافة الأمريكية، ونمط الحياة هناك هي مسألة عادية بحكم طبيعة الأشياء، ولم يخطر في ذهني للحظة واحدة أن طموحاته الشخصية للتسلّق في الهرم الوظيفي، ورغبته في جمع المال بأي طريقة سوف تدفعه إلى طعني في صميم معتقداتي وهويتي وانتمائي لوطن وذاكرة، لم أصدّق أن هذا الابن الذي خرج من جسدي، سوف يأتيني في يومٍ من الأيام، ويقول لي بكل برودة: لقد تطوعت في الجيش الأمريكي وسوف أذهب إلى العراق. نزل الخبر على رأسي كالصاعقة إلى درجة أنه أخرسني تماماً. نظرت إليه من رأسه حتى أخمص قدميه. كانت تعابير وجهه حيادية وغير مبالية.. لم أستطع أن أبكي، أو أصرخ، أو أفجّر غضبي المكتوم في وجهه. انتابتني مشاعر متناقضة عصفت بكياني كله. مشاعر هي مزيج من الغضب والخوف، والحزن والفشل والإحباط. شعرت أن كل سنوات عمري ضاعت هباءً منثوراً. كأنني لم أزرع فيهما شيئاً من روحي، كأنهما هو وشقيقه ذهبا في غفلةٍ عني. كلٌّ منهما باتجاه غريب لا ينتمي إليّ، ولا أنتمي إليه. لم يسمح لي سامر، حتى ولو من باب الخوف عليه كأم، أن أناقشه في قراره. راح يحضّر أمتعته بانتظار الالتحاق بالجيش، وكلما اقتربت لحظة الوداع، كان شيئاً ما في داخلي يموت تجاهه، لكأن مشاعر أمومتي تبلّدت.. لم أكن خائفة عليه من الموت هناك، لأن موته المعنوي صار هنا حقيقة ماثلة أمامي، مسّت أعماقي في الصميم. لم أستطع أن أتخيّل بأي حال من الأحوال أن يذهب ابني أنا إلى هناك، ليقتل أبناء جلدته، حتى ولو حصل على كنوز الدنيا كلها. لم أصدّق نفسي، لكن هذا ما حصل أمام عينيّ، فيما أنا فاقدة الإرادة

والتأثير. كان شعوري بفداحة هذه المصيبة ممزوجاً بنوعٍ من الخزي العميق والشعور الغاضب بالخذلان.

حين أزفت لحظة الوداع دخلت إلى غرفتي وأغلقت بابها بالمفتاح. هرع زوجي شاهر وابنتي هالا خلفي ولمحت نظرة سامر المخاتلة التي تعبّر عن وصول رسالتي إليه بقوة. قرع شاهر الباب بعنف، وصارت هالا تنتحب خلف الباب. قلت لهما:

-لا أريد أن أراه، فليذهب إلى الجحيم.

صرخ شاهر بغضب: «افتحي الباب.. أنا زاد أب، وخايف عليه متلك، لكن شو تبغي نعمل.. نمنعه بالقوة؟»

قلت له بحنق شديد: «شاهر.. إنتِ بالذات لا تحكي إشي، لأنك إنتِ المسؤول. إنتِ يلي دمّرتِ حياتنا، ولولاك ما وصلنا لهون!»

كل محاولات توسلهما لكي أفتح الباب باءت بالفشل، وخيّم على البيت صمت الأموات. بعد لحظات قُرع الباب مرةً أخرى قرعات خفيفة. عرفت أنه سامر. لم أرد، ناداني بصوت مخنوق متحشرج: «ماما افتحي الباب. قلت له: هل تذكّرت الآن أنني أمك. اذهب لا أريد أن أراك.»

كانت هي المرة الأخيرة التي أسمع فيها صوته، لقد ذهب مرةً واحدة وإلى الأبد.

جمر تحت الرماد

غاص أحمد في سنواته اللاحقة في بحر متلاطم الأمواج. استنفر كل طاقاته وخبراته المتراكمة من أجل الحفاظ على توازنه الداخلي، لكنه اكتشف وعورة البحر، وقساوة غبار الصحراء التي تتلوّن كثبانها، وتتغيّر كلما أوغل في مجاهيل ذاته بحثاً عن معالم الطريق إلى واحة دفء، أو بقعة ظلال.

وصل أحياناً إلى حافة الهاوية، وكاد يستسلم أمام عواصف اليأس، ورياح الخديعة. اكتشف أن الحفاظ على نقاء روحه وسكينتها أصعب بما لا يُقاس من عتمة جدران زنزانته، فهو هناك كان حبيس الجسد، لكنه طليق الروح، يعيش انتظار الحلم، بينما وَجدَ نفسه هنا يسبح ضد التيار.. يصارع لكي يتخلّص من أنيابه قبل أن يجرفه بهذا الاتجاه أو ذاك.

لم يصل إلى هذا المفصل من حياته، ويكون ما آل إليه، لولا أنه دفع الثمن مبكّراً، أجمل سنوات شبابه. في كل مرة كان ينهض من تحت الرماد. يرمّم شروخ روحه، وأثلام جسده المنهك بعصف الرياح، وضغوط المغريات، وضباب العلاقات التي فقدت منذ حين وهج صدقها ونقائها، بعد أن صارت تحدّدها الأهواء وتيارات النفوذ، وسطوة المصالح، والأقنعة المخادعة.

كان لديه ما يؤهله الدخول في إطار الجوقة: رصيده النضالي، وسمعته الحميدة، ومؤهلاته الكثيرة، التي تسمح له إذا ما أراد استثمارها

بانتهازية أن يتبوأ المناصب، ويحظى بالنفوذ والسلطة، شرط أن يرضى بشروط اللعبة التي يعرف مفاتيحها، وما عليه إلاّ استخدامها لكي تشرع الأبواب أمامه، بيد أنه في هذه الحال سوف يفقد أثمن ما لديه: نقاء روحه.

أرادوا منه أن يصبح واجهة، أو ديكوراً، يستثمر سنوات اعتقاله في بورصة المزايدات، ولعبة المصالح التي استشرت، لأن من الصعب على الآخرين الطعن بمصداقية أمثاله، وكل المطلوب منه القبول بالتواطؤ، أو على الأقل الصمت والإذعان، وإلاّ عليه في حال الرفض مواجهة عنف الأنياب التي سوف تنهش جسده، وتلاحقه أينما حلّ بالاتهامات المزوّرة والتشويهات المفخّخة، وفي أحسن الأحوال تفرض عليه التهميش، والعزلة، والتشكيك بسمعته وتاريخه.

شعر أيضاً بوطأة الفوارق بينه وبين أصدقائه القدامى على أكثر من مستوى، وكان هذا الأمر نتيجة طبيعية لضريبة المعتقل، فعلى المستوى التعليمي كان فواز قد أنهى دراساته العليا في «البوزار»، وحصل على شهادة دكتوراه في تاريخ الفنون من جامعة السوربون، وأضحى فناناً مشهوراً، وتخرّجت أنا من قسم الفلسفة في كلية الآداب، وبت كاتباً معروفاً بعد إصداري عدة مجموعات قصصية، وتخرّج أقرانه في قصر شمعايا من الجامعات وفرقت بينهم السبل. بعضهم سافر إلى الخليج أو المهجر، وبعضهم ما زال يعمل في الشأن العام، لكنه بات في مواقع متقدمة. صحيح أنه لم يهدر وقته في المعتقل. قرأ الكثير من الكتب التي كانوا يحصلون عليها بصعوبة، ومتّن لغته الإنكليزية، وتعلّم العبرية قراءةً وكتابة، لكن السؤال الذي ألحّ عليه: ماذا سأفعل الآن؟!

صمّم على متابعة دراسته الجامعية، على الرغم من تقدّمه في العمر، وظروفه المادية والصحية الصعبة، إذ كان يعاني باستمرار من

نوبات الشقيقة التي تُسبّب له صداعاً شديداً، وشعوراً بالاكتئاب. أجرى فحوصات طبيّة عديدة، وجرَّب الكثير من الأدوية، دون فائدة تُذكر. كان يأتيه الصداع على فترات متناوبة، فيشلُّ حركته، ولا يهدأ إلاّ بعد أن يسترخي لساعات طويلة في مكان مظلم هادئ، وأي ضجيج كان يفاقم آلامه التي لا تُحتمل.

كذلك وجد نفسه العازب الوحيد بين أصدقائه ومعارفه، فمعظمهم تزوّج وأسس له أسرة، بعد أن استقرت أوضاعهم المادية، لذلك شعر بصعوبة التواصل الاجتماعي معهم، نظراً لاستغراقهم في همومهم العائلية.

عاش في البدايات على المخصّص الشهري المتواضع الذي حدّده له تنظيمه، الذي بالكاد يسد احتياجاته الأساسية، لكنه أراد عملاً مهنياً حقيقياً يعيد له الاعتبار أمام ذاته، ويشعره بأنه إنسان طبيعي، بإمكانه الاعتماد على نفسه متحرّراً من عبء الارتباط بأي جهة برابط المخصّص الشهري، فكيف له أن يحصل على عمل، وهو بدون مؤهلات مهنية أو شهادة جامعية؟!

بعد حوالي سنتين على خروجه من المعتقل، وبعد عراك قاسٍ مع ظروفه سجّل في إحدى الجامعات اللبنانية، وكان خياره دراسة علم الاجتماع السياسي، باعتباره الاختصاص الأقرب إلى تكوينه الذهني والنفسي، وهكذا استطاع أن يوفّق ما بين الأعمال المتفرقة التي يقوم بها هنا وهناك وبين دراسته الجامعية. كان يترجم مقالات سياسية عن العبرية أو الإنكليزية، وبعد عدة سنوات استطاع أن يحقق صيرورته الذاتية التي أعادت بعض التوازن الداخلي له. تخرّج من الجامعة، فسدّ النقص الذي كان يشعر به من الناحية المعنوية، لكن الأهم من ذلك أنه استطاع خلال سنوات الدراسة، وعلى خطٍّ موازٍ أن يسجل لنفسه حضوراً

في الصحافة الفلسطينية والعربية من خلال ترجماته وكتاباته، الأمر الذي فتح له أفقاً للعمل بوصفه متخصصاً في الشؤون الإسرائيلية، وكانت مواده مطلوبة في الصحافة العربية التي يراسلها، فكوّن اسماً معروفاً في هذا المجال، وتطوّر عمله إلى ترجمة كتب كان يختار عناوينها بعناية فائقة، لكي تضيف جديداً للمهتمين بهذا الشأن.

على الرغم من النجاح النسبي، الذي حققه على صعيد الدراسة والعمل شعر أن التوازن الذي يبحث عنه هو أكثر صعوبة، وتعقيداً مما كان يظن، فثمة أسئلة صعبة راحت تفرض نفسها عليه. وكلما أوغل أكثر في بحثه، كلما ازداد اغتراباً، وشعوراً بالتهميش واللاجدوى. شعر وكأنه بات وحيداً، مفرداً في مهب الريح التي تعصف به من كل جانب، بحكم تتالي الهزائم، وتراكم الأحداث التي غيّرت مناخات المنطقة، ومفاهيمها وأهدافها التي طالما تربّى عليها، وشكّلت مضامينها أحلامه الكبيرة التي كان على استعداد لأن يدفع حياته ثمناً لها. كان يتساءل بمرارة: ماذا حدث.. وكيف يمكن أن تجري كل هذه التحولات في الرؤى والمفاهيم والثوابت التي كانت بمنزلة بديهيات راسخة، فأضحت محط سخرية في رأي البعض، ومفاهيم بالية من تراث الماضي البائد برأي البعض الآخر؟!

بعد سنوات طويلة قابل فاطمة الحسنين، التي أضحت عجوزاً هرمة، عاجزة، ومجرّد حطام تتحرّك على عربة في فناء بيتها، لكن ذاكرتها ما تزال متوقّدة، وعيناها مشتعلتان. احتضنته بترحاب وابتسمت له ابتسامة متأسية، ساخرة وبألم قالت:

-أين نحن من تلك الأيام.. البشر تغيّروا والدنيا تغيّرت. لم يعد لدينا لهفة على بعضنا.. ضاع الصدق والوفاء.. وضاعت معه أحلامنا..

وبسخرية حزينة لاذعة أضافت:

-بعض هؤلاء الذين كانوا يجتمعون في غرفتنا الصغيرة.. ماذا

يفعلون الآن؟! ولماذا تناسوا أصلهم؟! هل لأنهم صاروا قادة ومسؤولين.. كل همّهم الحفاظ على كراسيهم؟!

صار يغلق على نفسه باب غرفته، وينظر بحزن إلى رفوف مكتبته، ينفض الغبار عن كتب الماركسية والقومية.. يقلّب صفحات كاسترو وتشي غيفارا.. ثم تأخذه قصة لأنطون تشيخوف، ثم تسرقه دواوين محمود درويش.. يفتح المسجّلة على صوت مارسيل خليفة.. ثم يستمع إلى أغاني الشيخ إمام.. ويقول في نفسه: هل حقاً كنا مثل دونكيشوت نحارب طواحين الهواء؟! لا.. لا.. لا يمكن أن تكون هذه القضايا الكبرى مجرد أحلام.. ربما أضعنا البوصلة.. ولم نحسن استخدام الأدوات.. ربما نخرت بنيتنا المحسوبيات، وأموال الفساد، لكن القضايا النبيلة ستظل نبيلة.. وعادلة مهما طغى الانحراف.

لم يستطع أحمد الشيخ طالب بعد المخاضات الكثيرة التي مرّ بها أن يفصل بين حياته الخاصة، وأحلامه الكبيرة. ظلت المرأة المشتهاة حلماً له بعيد المنال. ضغطت عليه والدته كثيراً لكي يتزوج.. وحاولت شقيقته سميحة تلميحاً ومباشرةً أن تعرّفه على أكثر من صديقة لها، ظنت أنها مناسبة له، وتقصّدت أنا وزوجتي دعوته إلى سهرات عديدة، لكي يتعرّف خلالها إلى بعض الصديقات، لكنه في كل مرة كان يجد نفسه أكثر نأياً.. واغتراباً. لم يجد بين من تعرّف عليهن تلك المرأة التي بإمكانها أن تضمد شروخ روحه، وتملأ فراغ قلبه.. لم يجد بينهن من تنتشله من صقيع حياته، وتعيد الدهشة إلى عينيه، والدفء إلى مفاصل جسده. لم يكن متكبّراً، أو شخصاً بارداً كما ظنت إحداهن.. ولم يكن شخصاً معقّداً حسب التفسير الساذج لبعضهن، بل رجلاً متعباً، عصفت به رياح الزمن، وألقت به على شاطئ مهجور. كان يحاول مداواة أثلام جسده.. وترميم شروخ روحه في بحثه الدائم عن امرأة طليقة، صافية، صريحة وجارحة.

امرأة لا تخفي كنوز عطائها، ولا تبخل بفيض دفئها. امرأة تذكّره بتلك المشاعر البكر التي عاشها مع رشا، وأحسّ بها جدولاً متدفقاً في طفولته، ومطلع شبابه، فهل يبحث عن الحب – المستحيل؟! أم أنه يعيش نوعاً من التماهي مع نموذجٍ، أو فكرة، أو حلمٍ لا وجود له في الواقع؟! كانت مثل هذه الأسئلة غيوم تبدّد صفاء حياته، وتخلخل توازنه الداخلي الذي يجهد من أجل تحقيقه. كان بإمكانه أن يعيش علاقات عابرة مع بعض النساء اللواتي التقى بهن، لكنه أبى أن يكذب على نفسه، ويكذب عليهن، بل أكثر ما كان يمقته أن يُغرق نفسه في الزيف والخديعة، فالمسألة بالنسبة له ليست مجرد جسد وشهوات يريد إشباعها بأية طريقة، ولو على حساب إنسانية امرأة قد ترى فيه رجلها المنتظر، لقد أراد أن يلتقي في منتصف الطريق مع امرأته – المشتهاة المنتظرة. ومع ذلك لم يكن من السهل عليه أن يحافظ على هذه المعادلات الصعبة، بل كان أحياناً يقف عند التخوم، ويكاد ينزلق في مغامرات تلوّث نقاء حياته، تحت ضغط الجسد ورغباته التي تشتعل أمام عطر امرأة ما، أو التفاتة أنثوية طاغية، أو نظرة لبوة ملغزة من واحدة ما، جمعته معها تلك السهرات الصاخبة مع أصدقائه وعائلاتهم، بيد أنه في اللحظات الأخيرة، كان يعود إلى ذاته الحقيقية، ليردم فجوة الفراغ التي انفتحت في داخله، قبل أن يستمرئ لعبة الزيف، والتلاعب بالعواطف التي قد تأخذ به إلى دهاليز، أو مطارح لا يرغب بها، بل يمكن أن تزيد من اغترابه، وضباب حياته، وقسوة الفراغ الداخلي الذي راح يقضم روحه ببطء شديد، ويشعره بالعدم واللاجدوى.

لم يشعر في يوم من الأيام أنه رجلٌ متميّز. ولم يبحث عن الفرادة، أو البطولة بل كان إنساناً بسيطاً عادياً، وجلّ ما في الأمر أنه أراد أن يكون ذاته، بلا أقنعة، رجلاً يعيش قناعاته بصدق، بعيداً عن الأوهام، أو الشعارات الكبيرة، أو الإدعاء بما ليس فيه، ولعلّ هذا الأمر بالذات ما

خلق الكثير من الأسئلة والتكهّنات من حوله، بل أكثر من ذلك خلق له من حيث لا يدري، بعض الأعداء من بين معارفه وأصدقائه القدامى الذين لم يفهموا، أو أرادوا أن لا يفهموا طبيعة سلوكياته، وأخلاقياته التي وجدوها تنتمي إلى زمن قديم غابر، فانفض البعض عنه، وطالته ألسنة البعض الآخر بالنميمة والاتهامات الجارحة، وعلى الرغم من الألم الشديد الذي سببته له تلك المواقف، فقد كان على قناعة عميقة، بأنه يمكن أن يكتفي بأقل القليل: واحة ضيقة ودافئة من الأصدقاء الأوفياء.. ودخلٌ بسيط يحفظ له كرامته.. وامرأة حالمة لا بد أن تأتي في يومٍ ما، لكي تقاسمه أحزانه وأفراحه وقناعاته.

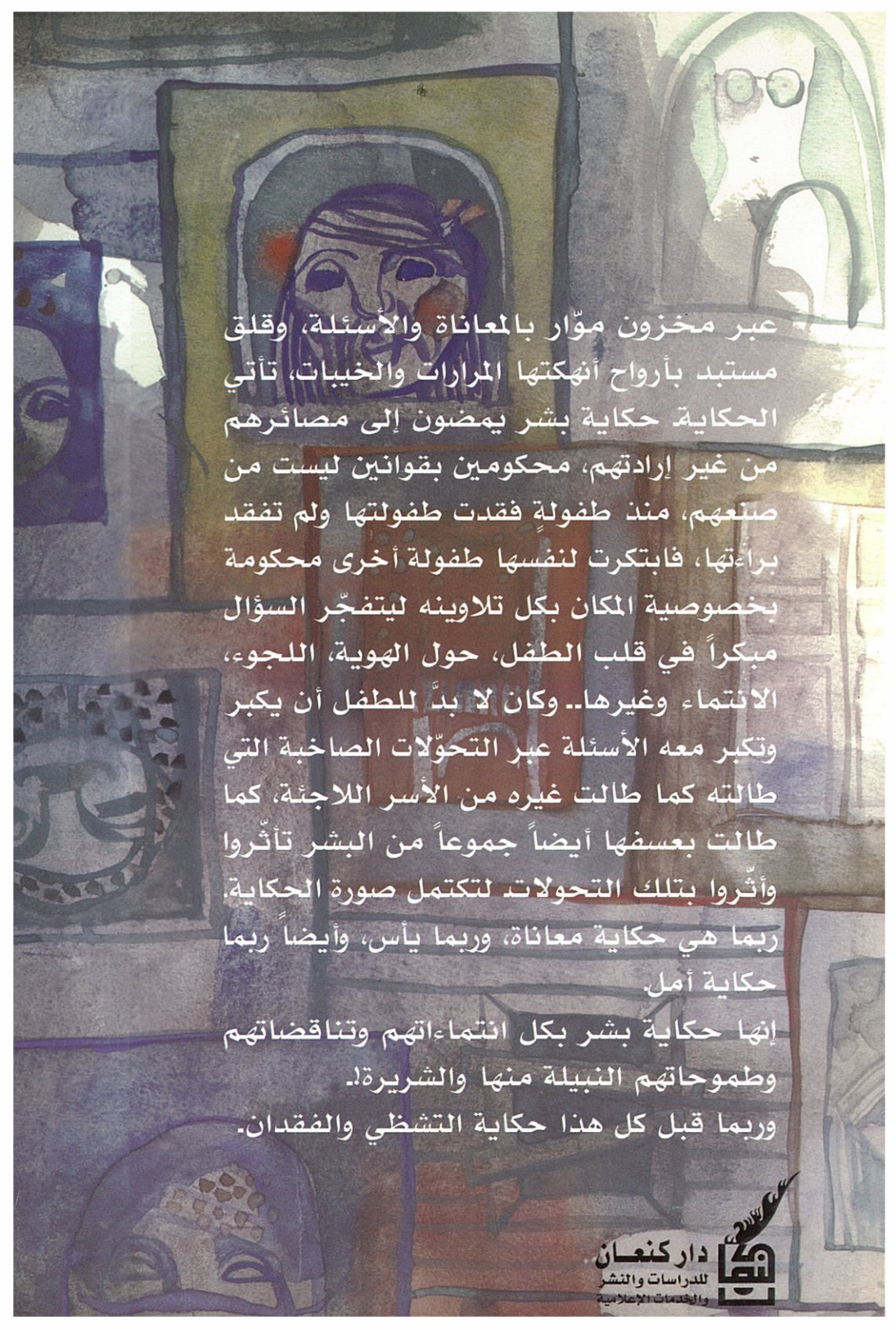

عبر مخزون موّار بالمعاناة والأسئلة، وقلق مستبد بأرواح أنهكتها المرارات والخيبات، تأتي الحكاية حكاية بشر يمضون إلى مصائرهم من غير إرادتهم، محكومين بقوانين ليست من صنعهم، منذ طفولةٍ فقدت طفولتها ولم تفقد براءتها، فابتكرت لنفسها طفولة أخرى محكومة بخصوصية المكان بكل تلاوينه ليتفجّر السؤال مبكراً في قلب الطفل، حول الهوية، اللجوء، الانتماء وغيرها.. وكان لا بدَّ للطفل أن يكبر وتكبر معه الأسئلة عبر التحوّلات الصاخبة التي طالته كما طالت غيره من الأسر اللاجئة، كما طالت بعسفها أيضاً جموعاً من البشر تأثّروا وأثّروا بتلك التحولات لتكتمل صورة الحكاية.

ربما هي حكاية معاناة، وربما يأس، وأيضاً ربما حكاية أمل.

إنها حكاية بشر بكل انتماءاتهم وتناقضاتهم وطموحاتهم النبيلة منها والشريرة!.

وربما قبل كل هذا حكاية التشظي والفقدان.

دار كنعان
للدراسات والنشر
والخدمات الإعلامية